طلعنا عالحريّة
حرية، كرامة، مواطنة

عن قسوة المصير المجهول

العدد 101
2021 / 12 / 17
مجلة شهرية، سياسية، ثقافية، مستقلة

التعذيب بالشكّ!

افتتاحية العدد بقلم أسامة نصّار

لمّا ذكرت لها إن أكثر العبارات تكراراً إذا تحدثت عن ذكرياتي مع أصدقائي هي من مثل: "الله يرحمه/ـها، الله يفك أسره/ـها، الله يرده/ـا بالسلامة.."! وإن هذا حتماً من علامات الشيخوخة، ظننت أن الشابة الصغيرة تحاول مواساتي عندما قاطعتني: "وأنا كذلك"!

هربت إلى المزاح: "..وعندك الخرف وفقدان الذاكرة، وآلام المفاصل.." لأن لا أستغرق بالتفكير بصبية/ طفلة بنصف عمري، لها أصدقاء ميتون ومعتقلون ومنفيون!

وتذكرت أنها أيضاً تعاني مما هو أقسى من ذلك كلّه؛ المصير المجهول! هي لا تعرف إن كان أبوها حيّاً أم ميتاً منذ اعتقاله قبل عشر سنوات.. وهي مثلي تتلبك وتلغمط الكلام عندما تذكر والدها أو أصدقاء مغيبين؛ فلا تعرف هل تترحم عليهم أو تدعو لهم بالإفراج.. وقد تتحاشى ذكرهم من أصله!

في هذا السياق، تصدّع رؤوسنا تأكيدات "منطقية" لمحللين متذاكين مثل: "كل من اعتقل قبل 2013 هو ميت" أو: "معتقلو داعش غالباً تم ذبحهم لأن داعش انتهت" وأيضاً: "لا بد أنه تمت تصفية مخطوفي الغوطة لأن كل الفصائل خرجت منها في 2018".. وتحليلات أخرى مثلها، سأدعها جانباً الآن.. ليس لكونها عديمة الإحساس فحسب، ولكن لأنها محض ظنون، و"إن الظنّ لا يغني من الحق شيئاً"، وإن بلغ رتبة شهادة وفاة يصدرها النظام الكذّاب بأسماء معتقلين ومختفين في سجونه.

نستطيع التعميم -دون مجازفة- أن الاعتقال هو واحد من موضوعات ملازمة لكوابيس، لا تنفكّ تراود السوريين والسوريات، أينما كانوا.. الزنزانة أو الاعتقال مع التعذيب، بالإضافة للتجنيد العسكري، والعودة للمدرسة أو للامتحانات (البكالوريا أو غيره) والسقوط من شاهق..

وقد تكون كوابيس جنرالات التعذيب أو اللصوص الأغنياء والمستكبرين والشبيحة وصغار الموالين هي أن تنقلب الأدوار. ولا أعرف بالضبط بم (يكوبس) الآخرون ممن ينتظرون في البرد على طابور الغاز أو الوقود أو الخبز.. فهم يعيشون الكابوس واقعاً لا صحواً مرجو منه!

...

في قضية المغيبين والمختفين قسراً، يقفز البعض من مطلب معرفة الحقيقة إلى العمل من أجل محاسبة المجرمين..

وهكذا.. نتجاوز كل الجرائم الأخرى، ولنحاسب جيش الإسلام عن جريمة اختطاف سميرة الخليل ورزان زيتونة ووائل حمادة وناظم الحمادي، وغيرهم كثر. ولنحاسب تنظيم داعش عن اختطاف الأب باولو وعبد الوهاب الملّا وسمر الصالح ومحمد العمر وفراس الحاج صالح ومحمد نور مطر، وغيرهم أيضاً. ولنحاسب النظام المجرم وأزلامه عن تغييب قائمة طويلة بأكثر من 140 ألف مواطن سوري في سجون التعذيب..

ولو اختلفنا أو اتفقنا حول جدليات "المحاسبة طريق الحقيقة" أو "الحقيقة أولاً" أو "العدل ولو انهار العالم"..

لن نختلف أن كل تلك المقاربات لا تعيد ما فات، ولا تجبر الكسر وإن رمّمته، وقد نسمي بقاء الأم، على قيد الأمل، وهي تنتظر ابنها المعتقل/ المختطف أو زوجها أو حبيبها، إنكاراً أو مكابرة، وقد ننصحها -رفقاً بها- أن تتصالح مع واقع الغياب الدائم الأبدي. وهذا غشّ محضّ؛ فمن أبسط حقوقها، بعد مصيبتها، أن تعرف مصيراً -أكيداً- لمحبوبها في حال تعذّرت عودته.. أن تعرف المصير، ولو كان قبراً يضمّ رفاته.. أن تستلم متعلقاته.. أن تعرف وصيته وكلماته الأخيرة.. أن تحصل على جواب لأسئلة غير منتهية تخربط بالها وحياتها.. أن تكون متأكدة..

لهذه الأم ولنا، نطلب الحق اليقين أولاً، لنطفئ نار الانتظار، ونغلق غرفة التعذيب بالشكّ، ونحاول متابعة العيش مع جروحنا وندوبنا، بعيداً عن تخرصات موضوعية، فيزيائية ورياضية و"عدالاتية" وسواها..

طلعنا عالحريّة

شهرية ثقافية، اجتماعية، سياسية، تعنى بالشأن السوري

www.freedomraise.net

- المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
- المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

رئيس التحرير أسامة نصّار

نائب رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت

facebook.com/rising4freedom

twitter.com/freedomraise

freedomraise@gmail.com

المدير الإداري	الغلاف	كاريكاتير	أمن رقمي ومحاسبة	زملاء مختطفون في سوريا
معتصم أبو الشامات	سمير خليلي	سمير خليلي / هاني عبّاس	وائل موسى	رزان زيتونة - ناظم حمادي

من أجل سوريا دولة معقولة يعود إليها المغيّبون

مرزوق الحلبي

المغيّبون في سوريا الذين لا نعرف أسماءهم ولا عنهم أكثر ألف مرّة من الذين نعرف عنهم. وأولئك الذين شقّ الطاغية الوقت ورماهم في هوّته أكثر من هؤلاء وأولئك. إنّه الشقّ المُعتم لما نعتبره توافق على حقّ الدولة في احتكار العنف. وهو احتكار مُنح للدولة كي تستطيع تحمّل مسؤولياتها في إطار "العقد الاجتماعي"، وتحديدًا لفرض سلطة القانون على الجميع، وحماية حيواتهم وحقوقهم وممتلكاتهم. هكذا افترض هوبس ولوك وروسو وغيرهم من مفكّرين أفنوا أعمارهم في إنتاج صيغة نظريّة وعمليّة معقولة للاجتماع البشريّ ضمن كيان الدولة الحديثة. لكنّهم يقينًا لم يتصوّروا في أبشع سيناريوهاتهم دولة كسوريّة آل الأسد ونظام كنظام التوحّش الذي أقاموه على أرض الشام. في الشام، الأرض والتاريخ، نشأ نظامٌ يُجسّد ما أسمّيه "الدولة بوصفها عصابة". وهي دولة تتجاوز في منظومتها وبنيتها الدولة المستبدّة أو التي تُمارس الإرهاب. في حال نظام آل الأسد انتقلت "الدولة" بمجتمعها إلى "الحالة الطبيعية" التي تأتي بعد انهيار العقد الاجتماعيّ (هناك حالة طبيعيّة قبله). العقد الاجتماعي يأتي حسب مفكّريه بعد أن تكون "الحالة الطبيعيّة" خلقت الفوضى التي يروح ضحيّتها البشر بسبب ودون سبب. في الحالة الطبيعيّة التي نشأت في سوريا مع "الدولة بوصفها عصابة"، هو إلغاء كليّ ومُطلق لإنسانيّة الإنسان؛ باعتباره التهديد الاحتماليّ والفعلي للعصابة. فأن تكون إنسانًا ولو سالبًا، تكتفي بثلاث احتياجات فقط على سلّم ماسلو، تأمن الشرّ في كل ما تفعل، حتى لو كنت بهذه المحدودية من وجودك فستكون تهديدًا لنظام عصابة، لا يقوم إلّا على عكس ما في لفظة الإنسان من دلالات. من هنا هذا العداء البنيوي، ليس للمعارض فقط ولا للمختلف ولا للذي يُغني أو يرسم أو يُفكّر، بل للإنسان السوريّ بوصفه إنسانًا، هو النقيض المُطلق للعصابة. كلّ ادّعاءات نظام العصابة الأسديّ لتبرير تغييب البشر ومحوهم كأنّهم كلمة في سطر، أو سطر في صفحة، لا يُمكنها أن تغطّي على حقيقة أن النظام يُمارس وجوده وقوّته بوصفه نقيضًا للوجود الإنساني في شكله الخام. أمّا المُشكلة فكامنة في كونه يستمدّ "شرعيته" من تنظيرات الدولة الحديثة القائمة على أساس نوع من العقد أو نوع من المعقوليّة، والأهمّ على أساس شرعية من الدول والمجتمعات الأخرى. وهنا السؤال: كيف يُمكن لنظام التوحّش أن يحظى بشرعيّة، وأن يُعاد تأهيله وفي ذمّته عشرات الألوف من المغيّبين قسراً من اللبنانيين والفلسطينيين أيضاً، وهم ليسوا مواطنيه؟ بمعنى كيف حصل أن يواصل هذا النظام استعمال كلّ هذه البطش وكل هذا التنكيل بالإنسان السوريّ والفلسطينيّ واللبنانيّ في بثّ مباشر دون أن يأخذ العالم منه موقفًا أو أن يردعه؟ السؤال سهل بينما الإجابة عليه صعبة، بمعنى أنها لا تحمل بُشرى أو متنفّسًا لأحد. لا يُمكن لنظام آل الأسد أن يعمل وأن يستمرّ بدون حماية من أنظمة مشابهة. لكن الحقيقة الأكثر إيلامًا هي أن نظام العولمة يسعى إلى إقامة أنظمة كهذه و"صيانتها" في إطار إدارة العالم وفرض السيطرة على موارده، وضمان أقصى حدّ من مصالح المراكز. بمعنى ما إن نظام التوحّش لآل الأسد باق ويُعاد تأهيله لأنه يخدم مصالح المراكز التي تُدير نظام العولمة أو الإقليم. وعليه، لا أتوقّع الكثير، لا في ملفّ المغيّبين ولا في ملفّ تدمير البلد والمجتمع وتحويله إلى محميات لكيانات ومراكز أجنبيّة، إلّا إذا تغيّرت خارطة المصالح واختلطت من جديد. فالشام كالإقليم كلّه غير مستقرّ إلّا في كونه حيّزًا لمصالح عديدة تتنافس عليها مراكز قويّة، وتستعمل السوريين وقودًا في الحروب والنزاعات بينها. في ندوة ناقشت كتابًا عن الربيع العربي بعد عقد على بدايته، عُقدت في "الجامعة العبريّة" في القدس. كنتُ المشارك الفلسطينيّ الوحيد. وقد أشرت في بداية مداخلتي إلى كون معظم التحليلات استشراقية؛ تأتي من موقع معادٍ للربيع العربي بوصفه مصدر تهديد لاستقرار الدول والأنظمة التي رست في معظمها على توافق مع الرؤية الاستراتيجية للمنظومة الاستعمارية الإسرائيلية. وقُلت: "يؤسفني أنكم ترون الدول والأنظمة ولا ترون الناس، الإنسان، الحق في الحياة والحريّة". ردّت عليّ إحدى الجالسات إلى جانبي دون أن يرفّ لها جفن: "طبعًا، يا حضرة الأستاذ. هذا ما يهمّني كيهودية هنا. ولا يعنيني أي شيء آخر. عليّ الاهتمام بوجودي وبأمني هنا". للقول إن كلّ المراكز المحيطة بسوريا تنظر إليها من منظار مصالحها، وهكذا المراكز العالمية. أما الشعب في سوريا، أو ما تبقّى منه، هو ورقة لعب في إطار السعي لتحقيق المصالح. ما سقته آنفًا لا يعني التنازل عن حقّنا كبشر في إبقاء ملفّ المغيّبين حاضرًا حيثما نستطيع من منابر ومحافل. فهذا واجبهم علينا نحن الذين نتمتّع بالحريّة إلى أجل غير مسمّى قد ينتهي غدًا أو بعد غد، في إطار لعبة المصالح ذاتها. لكن ما لا يقلّ أهميّة هو الإسهام في جهد لا يُحدّ ولا يُسمّى لإنتاج سوريا أخرى معقولة لأجل مَن سيعود من المغيّبين واللاجئين والنازحين والناجين من المجزرة. من أجل سوريا دولة معقولة وليس بوصفها عصابة! مثل هذا الجهد لا يُمكنه أن يكون مقطوعًا عن أمريْن: الأوّل: عن سعي مماثل في الإقليم وفي العالم لاستعادة الدولة المعقولة، وتحريرها من هيمنة مراكز العولمة. والثاني: ربط هذا السعي بمنظومة أخلاقيّة متكاملة لا ترى الدول بقدر ما ترى الإنسان ووجوده وكرامته وحقوقه كلّها.

مصادرة الحرية والإفلات من العقاب

التاريخ يكرر نفسه

جيوفانا دي لوكا

منذ كنت في السادسة عشرة من عمري كنت أشارك في المظاهرات المنظمة في مدينتي الواقعة جنوبي إيطاليا، والتي تطالب بتحسين ظروف المدارس العامة أو المدافعة عن حقوق العمال.

في ذلك الحين، ومهما كانت قضية المظاهرة، كان لا بدّ أن يحضر العلم الفلسطيني في وسط المظاهرة، يرفعه شخص ما. وعلى الرغم من بعد المسافة بيننا وبين فلسطين، كانت انتهاكات "إسرائيل" ضد الشعب الفلسطيني خلال التسعينات أمراً جلياً بالنسبة لنا كإيطاليين.

ومرت السنوات، ولا يزال الجميع هنا في أوربا على علم بأن هناك أراض فلسطينية محتلة. ورغم ظهور شيء في حياتنا اسمه "العولمة"، بحيث لم تعد سوريا والدول العربية بعيدة عنا، إلا أن أحداً لم يكن يعرف بالفظائع التي ترتكب في سوريا منذ عام 1970.

كانت مصر وجهة سياحية مفضلة بالنسبة للسائح الإيطالي، وكذلك كانت تونس لجمال شواطئها، كما كانت ليبيا دولة صديقة لأنصار برلسكوني، رئيس الوزراء آنذاك، ولداعمي القذافي.

وعندما بدأ الطغاة العرب يتساقطون واحداً تلو الآخر، كنا نتساءل: "لكن.. ماذا عن سوريا؟.. ماذا عن هذا البلد الذي يبعد عنا مسافة ثلاث ساعات بالطائرة؟".

لطالما كان الكلام إشكالياً عن "مملكة الصمت" التي تحكمها أسرة الأسد. خاصة بوجود جهات إعلامية داعمة للأسد، وتتبنى رواية نظامه بنشر معلومات كاذبة عن المعارضة، وتعتبر الثائرين إرهابيين، بينما يتم الكلام عن الأسد "الاشتراكي" والذي يعادي الولايات المتحدة وإسرائيل.. مع تتمة الأسطوانة القديمة.

لكن من كان يتابع أخبار الثورة من الناس على الأرض، عبر فيسبوك ويوتيوب، عرف بأن المظاهرات كانت سلمية صرفة، وأن النظام السوري استخدم كل أدواته الوحشية لقمعها، وعرف أيضاً كمية الاعتقالات وعمليات الخطف، وكذلك التفجيرات وقصف المدن.

ولم يكتفِ النظام السوري بذلك، بل قرر أن يستخدم سلاحاً جديداً ضد الشعب الثائر: الحصار. يريد أن يمنع عنهم الطعام والدواء والوقود حتى يقتصر تفكيرهم على الخلاص وتدبير معيشتهم، بدلاً من أن يفكروا بالثورة عليه.

كانت صور من يتضورون جوعاً في المناطق المحاصرة في سوريا، تذكرني بالمحتجزين في معسكرات الاعتقال النازية.

كيف أمكن لهذه المأساة أن تقع أمام أعين العالم كله؟

اكتفى العالم بالإدانة والتنديد، لكنهم لم يفعلوا شيئاً لمساعدة السوريين على أرض الواقع، في حمص وداريا والغوطة، وفي مخيم اليرموك، وفي حلب..

كيف أمكن للعالم المنافق أن يصمت عن كل هذه المآسي؟!

كيف أمكن أن يبقى الأسد وعائلته في السلطة بعد أن نكّل بشعبه جوّعاً وقتلاً وتعذيباً؟!..

وهكذا، وبينما أتابع أخبار الحصار في غوطة دمشق، قرأت شيئاً لمحامية وناشطة في دوما، تستنكر كلّ الجرائم المرتكبة من كل الأطراف، وعرفت أنها كانت مطلوبة من قبل مخابرات النظام.. كان اسمها "رزان زيتونة"!

ولكون النظام يبحث عنها غادرت رزان دمشق، وتبعتها سميرة الخليل، وهي أيضاً -مثل رزان- لم تدخر جهداً لتقديم العون للناس وسط كل تلك الأحداث المأساوية.

ثم انضم وائل حمادة وناظم الحمادي للمجموعة في الغوطة، ليشاركا في الأعمال الكبيرة التي كانت سميرة ورزان تقومان بها مع ناشطين وناشطات هناك.

ولأنهما حرتان وصاحبتي صوت حرّ، لم تخشيا من رفع الصوت عالياً، حتى في وجه المجموعة السلفية التي كانت تسيطر على دوما وقتها.

إنها المرة الأولى بالنسبة لي -كامرأة أوربية- التي أرى فيها نساءا يتحلين بهذا القدر من الشجاعة!

كانت صدمتنا كبيرة عندما علمنا باختطاف النشطاء الأربعة. وبدأنا بعدها نرى المسؤولين وأصحاب القرار من دول مختلفة يستنكرون هذه الجريمة، ولكن، ومرة أخرى، لم يقدم أحد المساعدة لعائلات المختطفين باستعادة أحبابهم. لم نرَ إلا كلمات جوفاء من المسؤولين الغربيين، كما حدث مراراً وتكراراً.

من أجل ذلك أخذت القرار بأن علي أن أعرّف الناس بهؤلاء الناشطين والناشطات، وأن أتكلم عنهم وعن عملهم.

فترجمت العديد من المقالات التي كتبتها رزان خلال الثورة، وجمعتها في مدونة على الانترنت.

ونشرت مقالات تتحدث عن سوريا وعن الثورة السورية وإجرام النظام بحق الشعب السوري.

وفي 9 كانون الأول/ ديسمبر الحالي نظمت مع مجموعة من الناشطين السوريين والغربيين ندوة للكلام عن قضية المختطفين الأربعة. كان من بين المتحدثين "أرتينو" وهو مصور كان موجوداً في الغوطة مع الناشطين الأربعة، وكان الحديث مؤثراً للغاية، خاصة بسرد قصص لم نكن نعرفها عن سميرة وعن رزان، وعن تفاصيل الحياة اليومية في دوما برفقة النشطاء الأربعة.

اكتشفت أنهم أكثر شجاعة وإنسانية حتى مما كنت أعتقد!

في عام 2018 بدأت بقراءة مذكرات سميرة باللغة الإسبانية. في ذلك الربيع، جاء زوج سميرة، ياسين الحاج صالح، إلى برشلونة لتقديم الترجمة الإسبانية لكتابه "الثورة المستحيلة". كنت قد ترجمت بعض مقالاته، وأردت أن أغتنم الفرصة للقائه، والاستماع له. وكانت تلك حقاً لحظة مهمة بالنسبة لي. فهو رجل عظيم فعلاً.

بعد أيام قليلة كتبت له: "مرحباً ياسين.. أريد أن أترجم مذكرات سميرة إلى الإيطالية. يجب أن يعرف الإيطاليون ما حدث في دوما وفي سوريا. من الضروري أن يكتشفوا هذه النماذج الإنسانية الرائعة التي كانت تناضل هناك".

وهكذا، ولمدة سنة ونصف، كنت صوت سميرة الإيطالي. وكان هذا العمل تجربة رائعة، وشرف كبير لي.

مرت 10 سنوات منذ آذار/ مارس 2011 ، بل ما يقارب 11 سنة، والثورة مستمرة.

لا يزال المجتمع الدولي عاجزاً عن التحرك لإنقاذ الشعب السوري، وإسقاط الأسد.

بينما يقضي اللاجئون ليالٍ في قلب أوروبا، يتجمدون ويتضورون جوعًا، تماماً مثلما حدث في سنوات غابرة من حروب البلقان.

"التاريخ أكبر معلم"، ولكن ليس له تلاميذ يتعلمون منه.

والمجتمع الغربي كأنه يعيش في العصور الوسطى. فلا يزال الناس في أوروبا يعتقدون أن الأسد ليس الأسوأ لحكم سوريا، وأن معارضيه هم مجموعات إرهابية دموية.

ولا زال من الصعب إقناع الشعوب في الغرب بالتعذيب والجرائم التي يرتكبها النظام السوري بحق الناس الأبرياء.

لذلك كله علينا أن نطالب بالعدالة والحرية لشعب يكافح منذ 10 سنوات. فالحرية حق لكل البشر، ولو فقدها إنسان واحد، فكأنما فقدها كل البشر.

أضم صوتي لصوت الأحرار من الشعب السوري: نريد الحرية والعدالة لرزان وسميرة ووائل وناظم، ولجميع الـ140.000 مختف أو معتقل قسرياً في سوريا.

آراء من ناشطين وناشطات عن قضية المخطوفين الأربعة وتبعاتها

علي الدالاتي

يمكن القول في العموم إن كل عملية خطف أو اعتقال أو قتل أو تغييب لناشط قد أثرت على مسار الثورة وأضعفتها؛ فسيرورة الثورة وتصاعدها ثم انكفاؤها هي ذاتها مسيرة هذا الاعتقال وهذا الخطف وهذا التوسع في رقعة القتل. إلا أنه في المحصلة من الصعب القول إن تغييب ناشط بعينه قد أثر على سير الأحداث؛ فالنتيجة العامة تأثرت بعوامل أخرى مضادة ضمن واقع دولي لا يريد تحرر الشعوب ولا امتلاكها لمصيرها وإرادتها. ما كان سيتغير في الغالب هو مصير الناشط نفسه؛ فقد يكون شهيداً أو بطلاً، وقد يكون لاجئاً أو ناجياً كما كان البقية. وبمرور ثمان سنوات على اختطاف الزملاء رزان زيتونة، سميرة خليل، ناظم حمادي، ووائل حمادة بعد هجوم استهدف المكتب المشترك لكل من مركز توثيق الانتهاكات في سوريا ومكتب التنمية المحلية ودعم المشاريع الصغيرة و مجلة طلعنا عالحرية، في دوما في الغوطة الشرقية. استطلعت مجلة طلعنا عالحرية آراء عدد من الناشطين والناشطات عن قضية المختطفين الأربعة وآثارها.

- ما هي رسالة رزان ووائل وناظم وسميرة، وهل مازالت رسالتهم قائمة بعد خطفهم؟

جميع من سألناهم هذا السؤال أكدوا أن رسالة الأربعة نابعة من أفكار الثورة السورية في تأسيس دولة لها دستور وقوانين، نابعة بدورها من الشعب، وقائمة على الحرية والعدالة والمواطنة والتعددية وحقوق الإنسان. وكذلك في محاسبة منتهكي الحقوق عبر توثيق الانتهاكات بحق السوريين. وكان رأيهم أن هذه الرسالة مازالت مستمرة، رغم اعتراف بعضهم أن وتيرتها انخفضت بسبب الظروف الحالية. وعن ذلك يقول ثائر حجازي الناشط الذي أدار مكتب دوما لمركز توثيق الانتهاكات بعد اختطاف مديرته رزان:"إن رسالة المخطوفين هي ضمير كل ثائر في الثورة السورية، وكل من يعمل لقيم الثورة السورية مازال حاملاً لرسالة النشطاء الأربعة".

- هل أثر خطف النشطاء الأربعة على سير الأحداث الميدانية؟ وهل كان سيتغير مجرى الثورة في حال لم تتم هذه الجريمة؟

انقسم المجيبون عن هذا السؤال؛ فكل من الناشطين الإعلاميين نصر ومحمد من مدينة كفرنبل وبلدة حيش على الترتيب قالا إن الثورة السورية لا تتوقف على شخص مهما بلغت أهميته، وإنما هي فكرة يتم تداولها بين الناس، و"الثورة فقدت الكثير من الناشطين فيها" وكون "حتى الناشطين المختطفين الأربعة أنفسهم كانوا يرون أنهم جزء من الثورة، وأن الثورة يجب أن تستمر" حتى لو فقدت نشطائها، "فالفكرة هي أساس ديمومة الثورة". أما وسيم الناشط الحقوقي من بلدة حاس، والطالبة الجامعية هدى المهجرة من وادي بردى إلى شمال سوريا، فكان رأيهما مختلفاً؛ حيث اتفقا على أن تغييب أي ناشط في الثورة السورية، سواء بالتغييب أو الاغتيال انعكس سلباً على مسار الثورة بسبب فقدان هؤلاء الأشخاص الذين يملكون الخبرة والوعي الكافيين بمدى إجرام النظام وكيفية التعامل معه، واتفق معهما ثائر في أن خطف النشطاء الأربعة كان له تأثير على الأقل ضمن مجال توثيق قضايا حقوق الإنسان في سوريا وعلى مسار العمل المدني في الثورة. كما اتفقوا على أن خطف وتغييب أي ثائر في الثورة السورية له أثر كبير في قلوب السوريين وخاصة إذا كان المختفي يملك تأثيراً على الرأي الشعبي. وهذا ينطبق على المغيبين الأربعة، وهم معروفون بكونهم من أبرز معارضي النظام، حتى من قبل الثورة.

- كيف ترى كون المختطفين الأربعة مشهورون بينما هناك مغيبون كثر مغمورون؟

جميع من سألناهم أكدوا أنه لا فرق بين مغيب ومغيب آخر، ولكن "كون الأربعة معروفون فهم أشبه برموز للمغيبين جميعاً"، فلا فرق بين رزان ووائل وسميرة وناظم أو أي معتقل أو مغيب. ولكن بسبب شهرة الأربعة يتمّ تسليط الضوء عليهم، وبهذا يتم تسليط الضوء على قضية جميع المعتقلين والمغيبين.

- برأيك ما هو مصير النشطاء الأربعة؟ وخاصة بعد سيطرة قوات النظام السوري على منطقة الغوطة الشرقية حيث فقدوا، و خروج كافة الفصائل العسكرية منها؟

الجميع هنا رجح نظرية المجهول بالنسبة لمصير الأربعة، بعد أن أكدوا بأنه لا يمكن التكهن بمصير الأربعة، بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة من عملية الاختطاف، وخاصة بعد سيطرة قوات النظام على منطقة الغوطة الشرقية وخروج قوات المعارضة منها. رغم أن بعض من سألناهم ومنهم الناشط نصر، لم يخفِ ظنّه عن مصير المغيبين الأربعة؛ بأنه "من الممكن أن تكون قد تمت تصفيتهم وإخفاء رفاتهم، دون أن نستطيع الجزم بذلك"، ولا يعتقد نصر أن النظام قد وصل لشيء عن مصير المختطفين، لأنه لو فعل ذلك "كان صنع منه حدثاً إعلامياً، واستغله ضد المعارضة في المحافل الدولية".

- من قام بعملية خطف الناشطين الأربعة برأيك، ومن هم المستفيدون من تغييبهم؟

الجميع أكدوا أن المستفيد الأكبر من عملية الخطف هو نظام الأسد؛ فكل من ساهم بتغييب هؤلاء الأربعة هو شريك مع النظام بالحرب على الثورة السورية. كما أكدوا أن أصابع الاتهام بالخطف تتجه نحو جيش الإسلام أو على الأقل أن العملية كانت بتسهيل منه. ونوّه محمد إلى أن "المناطق المحررة لم تكن مضبوطة بشكل كامل، ومازالت تتعرض لعدة اختراقات مستمرة، سواء من قبل خلايا تتبع لقوات النظام أو تنظيم داعش أو الحرس الثوري الإيراني والمليشيات الطائفية المرتبطة بالنظام" ومع ذلك يتابع:"أن فصيل جيش الإسلام المسيطر على مدينة دوما بتلك الفترة يتحمل جزءاً من المسؤولية، كونه لم يوفر الحماية للناشطين الأربعة". أما ثائر فقال إن "المتهم الأول بعملية الخطف هو جيش الإسلام كونه الجهة المسيطرة على مدينة دوما مكان خطف الأربعة، وهو نفسه من قام بتهديدهم، وأرسل عدة رسائل تهديد لرزان إن لم تخرج من الغوطة، وأطلق الرصاص على باب المكتب الذي خطف منه الأربعة قبل عملية الخطف بأيام معدودة..". فيما أضافت هدى لقائمة المتهمين "نظام الأسد، والفصائل الراديكالية؛ كون تلك الفضائل كانت ترى في رزان ورفاقها عقبة في طريقها لخطف الثورة".

في (الكتابة على جلود البشر..)!

يوسف صادق

كل ما كُتب وما يُكتب حول تجربة المعتقل لا يعادل لحظات الألم لمعتقل/ـة أو مُغيّب/ـة أو مفقود/ـة، أو غصّة وجع وصراخ مكتوم لأمٍّ أو زوجة أو طفل /ـة ينتظرون حريته/ها. هذا أولاً وأخيراً.

ولعلّ غزارة ما كُتب عن المعتقلين والمغيبين من دراسات ووثائق وروايات أدبية، تؤكّد حجم الدمار النفسي والمجتمعي الحاصل على مدار عقود. ومن المجحف تناولها كوثائق إدانة لسلطة استبدادية وفقط، رغم أهميّها القانونية لاستعادة الحقوق، أو اختزال المعتقلين والمغيبين قسرياً بصفة البطل الناجي، على غرار شخوص الأبطال في المخيال الشعبي، متناسين كينونتهم وإنسانيتهم، كما هي الحال باختزالهم لأرقام، لدى السلطة الحاكمة والمنظمات الدولية.

تجربة الألم التي خبرها المعتقل /ـة أو المغيب /ـة، تفصح عمّا وصلت إليه العلاقات الاضطهادية في الثقافة والسياسة والنفس الفردية، تفصح عن دلالات المعتقل/ السجن وقد بات وطناً أو أيديولوجية أو حزباً شمولياً أو مؤسسات هدفها ضبط السلوك والولاء والطاعة.

والعنف بكل أشكاله هو وسيلة الإخضاع لدى كل تلك المعاني الرمزية للسجن/ المعتقل، في كل ما كُتب من روايات ووثائق وشهادات من قِبل لجان حقوق الإنسان وعدد كبير من الكتّاب، كمصطفى خليفة وأيمن العتّوم وفرج بيرقدار وهبة الدباغ وسمر يزبك وروزا ياسين حسن وإبراهيم صموئيل.. وغيرهم الكثير، نجد تماثلاً في توثيق أشكال العنف؛ فالعنف ليس حالات مرضية فردية بقدر ما هو نمط ممنهج لدى السلطة اللاشرعية لفرض نمطها الاستبدادي في بنى المجتمع وفي سلوك وثقافة المقهورين. حينها يساوي الخوف بين المقهورين؛ فيتساوون بعدم الجدوى، وبالانسحاق وتغييب أناياتهم، يجمعهم ويفرقهم بين متماهٍ مع نمط وأساليب المستبِد وبين منكفئٍ على ذاته. عندها تسود ثقافة الاستبداد ويستقر حكم الطغيان.

هذا ما يطرح علينا بل يحفزنا لدراسة ما كتب وأفصح عنه المعتقلون من تجربة الألم، لنعي كيف تشكّلت تلك العلاقات الاضطهادية، وكيف أصبح السجن/ المعتقل أكبر دلالةً، وكيف تشكّلت ثقافة الاستبداد كنمط يسحق الإنسان ويهدره.

إنّها إذاً ثنائية السجين/ السجّان تكثّف تلك العلاقات الاضطهادية في مجتمع قائم على إرثٍ طويل من الاستبداد إيديولوجيّاً وسياسياً، ومتحاجزاً إثنيّاً وطائفيّاً، يُعبّر عنه بذهنية شفاهية غيبية، يصبح الاستلاب هو القاسم المشترك، والخوف والقلق على الوجود مساوياً بين السجين والسجّان، حينما يصبح السجين سجّاناً لإنسانيته ولذاته عبر المرور بتحوّلاتٍ ليست خياراً له، بل هي شروطٌ تفرضها ثقافة الاستبداد. وقد بات سلطة لمن يريد أن يكون من الفرقة الناجية. منسلخاً عن انتمائه الأرقى إنسانياً وسياسياً، متماهياً بنمط حياة المستبدوسلوكه.

المقهورون المتساوون في العدم، تتأصّل لديهم على المستوى النفسي والسلوكي تلك الثقافة التي تحاكي شروط النجاة والخلاص، يتقاسمون وسائل العنف والإكراه والإخضاع، لأنه لا فرق بين أيديولوجية دينية غيبية هدفها الإخضاع، وبين سلطة ديكتاتورية، وبين نمط علاقات أبوية بطريركية غرضها الولاء والسطوة. أولئك يتساوون بالمبدأ ويختلفون في الوسائل، رغم اتفاقهم

بالعنف كإخضاعٍ وإكراهٍ وتربية.

كل ما كُتب عن المعتقل يوثّق هذا الاتفاق غير المعلن على العنف اتجاه كل مَن يخرج عن القطيع المتماثل، أو التأديب وتكسير الرؤوس حتّى يتساوى الطرف الآخر بالعدم.

ألا نجد تكسير الرؤوس لدى المقهور منذ أيام الطلائع ثم الشبيبة ثم الخدمة الإلزامية؟ ألا نجد سياسة الاحتواء والتدجين وفرض التربية التي تمجّد القائد منذ أيام الروضة؟ وهذا هو أبشع أنواع العنف؛ لما فيه من تعدٍّ على الوجدان وخيارات الإنسان وكينونته. أليس هذا "حيونةً للإنسان" كما أسماها ممدوح عدوان؟!

بينما يدرك المستبد الطاغية أنّ كلّ التغوّل بالعنف "لن يمتلك من خلاله تفكير السجين وأحلامه" كما قال أيمن العتوم. لربما هو هروب نحو الأمام، وانتقام وتشفٍّ من إرادة المعتقل/ـة؛ (فالسجون لا تحمي الأنظمة القمعية، والمذابح لا تثبت سلطتها، والإكراه لا يجلب الاعتقاد).

جلّ ما يفعله المستبد بعد تحويل الإنسان إلى عدوٍّ لنفسه، وتحويل السجن/ المعتقل لوطن أكبر عبر مؤسساته وأذرعه الأخطبوطية. جلّ ما يفعله هو إشاعة نمط حياته وأساليبه، حتى يتماهى معها الإنسان الحالم بالحرية المقهور.

وتسود ثقافة المستبد بإشاعة مفاهيم الشطارة وتدبير الحال والخلاص الفردي، والاستهلاك. حيث تنقلب المفاهيم في ثقافة الاستبداد فتصبح كلمة "سيدي" لرفع مكانة الجلّاد، ومكانة المتحكّم بشؤون الناس، وكلمة "أستاذ" مكاناً لانحطاط الشخص والعلم أمام جبروت السلطة والعنف.

وتصبح القضايا الكبرى محط نفور وكره، حينما تصبح قضية شعب فلسطين مكاناً للاعتقال.

أمّا الإنسان المقهور فمغلوبٌ على أمره بين عقابٍ مُعجّلٍ من قِبل المستبد، وبين عقابٍ مؤجّلٍ من العزيز القدير. وكأنّ الكواكبي ما زال حاضراً إلى وقتنا الراهن في تفسير مظاهر الاستبداد، و"الأسرى" الذين تكلّم عنهم، هم الآن منكفئون على ذواتهم الفردية الأنانية (أنا ومن بعدي الطوفان) أو على ذواتهم الجماعية الإثنية أو الطائفية أو العائلية كقوقعةٍ تحمي هذا المقهور من أيادي المستبد.

ولا ننسى أن الصراع حتى على سلّم الوصول لأحضان المستبد ذاته، عبر التماهي أكثر بعنفه، أو الصراع على المكاسب والمغانم والولاءات في المؤسسات القائمة. والنتيجة هي سحق الإنسان وهدره، يغذيها المستبد ويغذي صراعاتها. لتصبح كلها سجناً كبيراً.

بينما كلّ ذلك يحصل منذ عقود أو أكثر، ما زال الشيء الوحيد الذي لا يُسمع هو صرخة الألم لدى المعتقل/ـة، في تلك الأقبية المظلمة الموحشة.

حسبنا أننا ننقل ذاك الصدى لنكسر حواجز الفضاء وقضبانه، حسبنا أننا ننقل عنهم أنّ المعتقل هو الوطن وأنّ كلّ ما فيه أصبح أقبيةً مظلمة، هذا هو نداء المعتقلين: أنقذوا الوطن من سجن وعنف الطاغية.

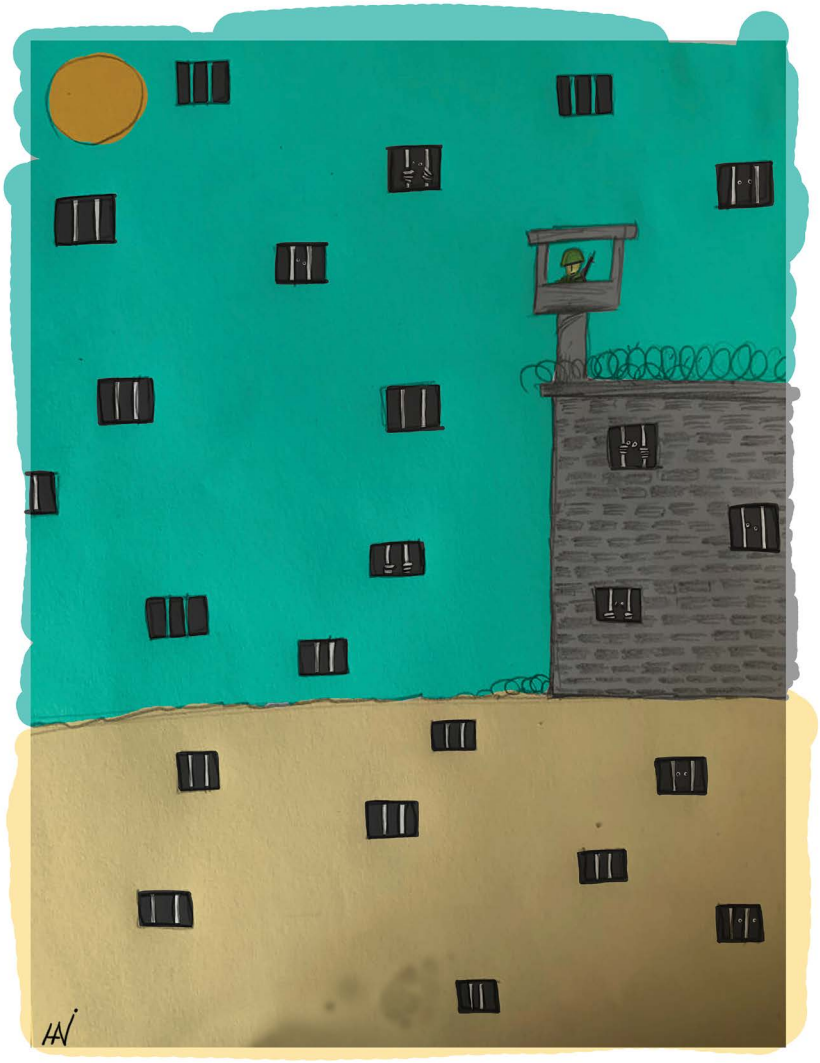

عن السجن بما هو لغة صارت مكاناً

مضر حمكو

كم هي سخيّة بلا منتهى هذه الحياة، إذ تمنح المرء فرصة أن يوجد خارج السجن بما هو مكان وزمن، كأنها تعطيك فرصة التنزه في الأبدية وتكتب عما كان تجربتك في السجن.

هل أنا خارج السجن فعلاً؟

سأحاول رفع الكلمات إلى ما تستحق من الجنون، سأهمس على مسمع اللغة والأفكار تمردي قليلاً كي أكون مارقاً من النوع الطيب. سأحكي عن اللغة من جهة أنها العبودية والحرية، من جهة أنها السجن والخلاص.

ربما جال في روعي أن من حق التجربة في السجن -وأنا تجربتي في السجن قصيرة بالمعنى الكمي، ولا تستحق الحديث عنها بهذه المثابة، لكن النوع يبقى ماثلاً على اختلاف الكم- أن أحاول تصعيد التجربة؛ أن أسمو بها -إن جاز لي ذلك- إلى اللغة، هذا الكائن العظيم الذي يجعلك تحار هل هو سجن أم حرية؟ أهو موت أم حياة؟ أهو حبّ أم كراهية؟ أهو سعادة أم شقاء؟

أظنه كل ذلك وأكثر، لم يقل أحد إنها سجن، فيما أظنها تاريخ كل السجون كما كل الحريّات وأقول الحريات بالجمع لأنها ليست الحرية المفردة بعد، بل أشكال نظنها كذلك. إلى ذلك سأكتب عن اللغة شيئاً يجعلني مرتبكاً كأنني الطفل يكتب لمعلم غشوم.

هل تجربة السجن لا تستحق الحديث عنها صراحة؟ جوابي هو لا نافية قاطعة جازمة.. وباكية! لماذا باكية؟ لأن التجربة عظيمة لكن بأي معنى هي كذلك؟ هل لأنها تجربتـ(ـي) أو (ـه) أو (ـها)؟ لا، بل لأنها كل ذلك. هي تجربتنا جميعاً كبشر نظنّ أنفسنا أحراراً، لهذا أقول يجب الكلام عنها بما يليق (في اعتقادي) بعظمة ألمها، يجب أن نتجذّر ونتسامق ونسمو كي نفهمها ونقاربها، بما يعيد إليها الحق من العظمة.

هل أقصد أن اللغة هي السبب في سجننا وليس السجّان؟ بالطبع لا، إنما قصدت أنها النمط الأشمل للسجن من جهة ما هي النمط الأسمى للحرية، إلى ذلك فهي النمط الخلاق للوجود بما هو سجن وحرية، وبما هو موت وحياة كذلك.

هل للكلام أجنحة تبعث فينا اشتهاء الطيران؟ لكن إلى أين؟

هل اللغة فيما نبوح ولا نبوح؟ فيما نفكر ولا نفكر؟ فيما نريد الخروج وليس ثمة درب؟ فيما يريد الطفل الذي خلفناه باكياً في أعماقنا يركل خبط عشواء على جدران الكون، وكل الأشياء حيطان؟ هل اللغة هنا سماء أم هاوية؟

هل اللغة غيوم تريد أن تمطر، وأي ماء يكفي عراءنا الفسيح؟

أهي لعنة التكوين أن نتعثر بأحجار اللغة على أرصفة الزمن، حينما أردنا الخروج من الغابة، وفيما كنا نغطي العورة كشفنا عورات بل هوّات، كلما أردنا ردمها حفرتنا دونما قاع.

دعوني أتساءل: أكان ثمة اختراع اسمه التفكير؟

هل كنا سنعرف العطر على أنه فرح الزهر بالوجود، وأن العسل غبطة النحل بالطيران؟

أكان سيجري الفزع والمفزع والرائع والمروع والريعان في دماء تاريخنا؟

أكان بوسعنا معرفة القتل والقاتل والقتيل، والسجن والمسجون والسجّان؟

هل كنا سنعرف الحرب وضدّها؟ هل كانت الحواسّ ستعرف كيف تقرأ العالم؟

أثمة سجن أعظم من اللغة، أثمة أعظم من اللغة بوصف أنها الملهاة جهة ما هي التراجيديا؟

ومما علمتنا أن نقرأ كفّ الحياة ونملأ الفضاء بالأشياء ثم نلهث خلف الفراغ، علمتنا كيف نختنق.

وفيما كنا نخترعها علمتنا كيف نجرح الكون ونداوي الكواكب، كيف نخيط الغيم ثياباً للشمس والقمر.

هل هناك أعظم من مخلوق يعلمنا كيف نسقط في الهاوية ولا نخرج؟

لست أعرف الآن إن كانت اللغة المخلوق أم الخالق.

لكنني لن أنسى كذلك أنها علمتنا ما الله وما الحب.

ليس يدري عصفور اليقين إن كان هو الله وإن كان هو الحب، لأننا بعدُ لم نحب.

لماذا أكتب عن اللغة الآن فيما ينبغي أن أكتب عن السجن؟

لأنها التكوين من جهة ما أنه أدخلنا رحب اللعنة والرحمة.

أو لأنها الوعي الذي دخل فينا ونام ومازال بعد يحلم، أو أنها النفس بقصد أنها تعيدنا إلى الجب دوماً مذعورين وفارّين ومهزومين، أو طغاة وسفاحين وسفّاكي الدم من جهة أنه المعنى، والمعنى بقصد أنه السعادة والحرية.

لماذا أكتب اللغة فيما ينبغي أن أكتب السجن؟

لأن السجن في داخل اللغة كما الموت في داخل الحياة، والنفس سردية ما اخترعنا.

لأن اللغة وطن من جهة ما هي المنفى! لأنها آلهة الكلام أراودها عن حظي من الهرب، من كل السجون، من كل الحروب، من كل الطغاة، من كل الجهات.

إنها اللغة معلمتي الكتابة عن الجنون بدلاً من السجون، وها هي تهبني المدد ضدّ كل نسق، ضد كل معتقد، ضدّ كل مذهب، ضدّ كل النظريات، ضدّ كل الملكيات.

لن أكتب عن السجن لأنه ليس سوى شكل من اللغة. لغة الموت زرعت تراب الروح بالفزع، وأنا أريد طائر الفينيق لأخرج من كل السجون.

لماذا أكتب عن السجن وأنا سجين ذاكرتي لماذا وأنا مسكون بالموتى ودماء المقتولين؟ لماذا والعويل مازال معلقاً على الجدران، لماذا أكتب عن حصار الموت في كل مكان؟

لماذا أكتب عن المكان الميت فيه السجين والسجّان؟

لماذا أكتب عن نشيج اليتامى وانتظار الحبيبات العائدين من خيال العدم؟

لماذا والسجن حصتي من الأشياء، لماذا وهو ذاكرة البلاد؟

أي بلاد أنت أيتها اللغة، هل لي بقليل منك؟

في السجن كنت أسائل الموت عما تبقى من حصتي في الوقت. في السجن انفضحت لهفتي إلى الحب، تشوّفت إلى عدن الوجود، إلى أنفاس الطفل الذي أحمله في قلبي ويحملني في لهفته ومعه كل صغار العالم من الورد، في السجن ذهبت إلى أسفل العالم وعدت،

هل عدت؟

لهذا أكتب عن اللغة، عن الأبواب تُشرع على الضوء، عن عطر ينسكب من روح، عن روح تنسكب من جسد.

خذيني يا لغتي فأنا بعدُ سجين!

رزان زيتونة والأخضر الإبراهيمي
وحديث عن حصار غوطة دمشق والممرات الإنسانية

القامشلي: كمال شيخو

في منتصف العام 2013 وبعد فرض النظام السوري الحصار على الغوطة الشرقية، اتصل الدبلوماسي الكندي مختار لاماني وكان وقتذاك رئيساً لمكتب المبعوث الخاص المشترك للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية إلى سوريا، الأخضر الإبراهيمي، مع المحامية رزان زيتونة يدعوها للقاء الأخير في مقر إقامته في دمشق، وقال إنه سيرسل سيارة دبلوماسية تقلّها حتى لا تعترضها الحواجز والنقاط الأمنية المنتشرة بكثافة، على مداخل ومخارج الغوطة.

آنذاك؛ لم يستغرق الاتصال وقتاً كبيراً، لأن رزان اعتذرت من دعوة المبعوث الأممي على الرغم من تأكيدها أهمية هذه اللقاءات، لكنها طلبت من لاماني أنه من الأفضل للسيارة الدبلوماسية الخاصة أن تحضر بعضاً من حليب الأطفال والأدوية المفقودة بالمنطقة، وإن استطاع إحضار بعض الخبز، لتخفيف معاناة سكان الغوطة المحاصرين. وأنها ستكون ممتنة كثيراً للأخضر الإبراهيمي لو فتح هذا الملف مع النظام الحاكم، من أجل فتح ممرات إنسانية. وبهذا ستكون هذه الخطوة عملية أكثر من لقائها وأخذها وإعادتها.

وبعد مرور ثلاثة أشهر من الاتصال، تعرضت الغوطة لقصف مكثف بالبراميل المتفجرة وراجمات الصواريخ والمدفعية الثقيلة، ووقعت مجزرة بشعة بالسلاح الكيماوي في 21 من شهر آب/ أغسطس 2013 أدين النظام بارتكابها، وراح ضحيتها أكثر من 1300 ضحية مدنية معظمهم من الأطفال.

وبعد وقوع المجزرة بنحو أسبوع التقيت مع رزان وطاقم مكتب التوثيق في مقرها بمدينة دوما، وبقيت في الغوطة 4 أيام أجريت خلالها لقاءات وسمعت شهادات ناجين من المجزرة، وكانت رزان وزملاؤها قد وثقوا المجزرة بالصوت والصورة.

وقبل عودتي لدمشق التقيت مع رزان لأودعها وحينها أخبرتني مضمون الاتصال مع مختار لاماني، وأكدت إنها لم تذهب بسبب تبني النظام الحاكم الخيار الأمني ورهانه على الحسم العسكري، وتعمدت قواته منع دخول قوافل مساعدات إنسانية أممية، ما دفع رزان بطلب فتح ممرات إنسانية إلى الغوطة الشرقية لحماية المدنيين وتجنيبهم ويلات الحصار.

وبعد مرور 8 سنوات من اختطاف رزان وزوجها وائل حمادة وصديقة دربها سميرة الخليل ورفيقها ناظم الحمادي، وبعد التغيرات الميدانية الكبرى التي شهدتها سوريا بعد سيطرة القوات النظامية على ثلثي مساحة البلد، وتمسكه بسلاح الحصار والحل الأمني العسكري لإعادة السيطرة على كامل الجغرافية السورية، وبعد توالي أربعة مبعوثين خاصين من الأمم المتحدة إلى سوريا منذ 2011، خلصوا جميعاً إلى الاعتذار من الشعب السوري، وإلقاء اللائمة على "تصلب الأطراف المتحاربة" في سوريا والجمود داخل مجلس الأمن الدولي.

ورزان البالغة من العمر 44 عاماً قضت سنوات طويلة في الدفاع عن المعتقلين والمعارضين السياسيين، وترافع عنهم أمام المحكمة العسكرية بدمشق وتتابع قضاياهم في دوائر القضاء المدني ومحكمة أمن الدولة العليا. وكانت تزور المعتقلين السياسيين في سجن عدرا أسبوعياً، وتتابع شؤون عائلاتهم. وكل يوم إثنين من الأسبوع تذهب إلى مقر محكمة أمن الدولة القريب من ساحة السبع بحرات وسط دمشق، لتستمع لشكاوى أهالي المعتقلين المحالين إلى المحكمة سيئة الصيت، وتوثق حالاتهم وطريقة الاعتقال وتجمع المعلومات الخاصة بهم.

وبعد انطلاقة الثورة في ربيع عام 2011، أسست رزان لجان التنسيق المحلية ومركز توثيق الانتهاكات إلى جانب مشاركتها في تأسيس مجلة (طلعنا عالحرية) وكانت إحدى كتابها ومحرريها.

توجهت رزان نحو مدينة دوما مسقط رأس شريك حياتها وائل، بعد الملاحقة الأمنية من قبل أجهزة المخابرات وفقدان القدرة على التحرك والتنقل. وبقيت في دوما قرابة ثمانية أشهر قبل أن يتم اختطافها مع زوجها ورفيقيها سميرة وناظم.

وليست مصادفةً عبور قافلة إنسانية في 9 من كانون الأول/ ديسمبر الحالي من المناطق الخاضعة لسيطرة النظام ضمن برنامج الأمن الغذائي العالمي التابع للأمم المتحدة، باتجاه محافظة إدلب التي تسيطر عليها خليط من تشكيلات فصائل المعارضة وجماعات إسلامية، بعد مضي 8 سنوات على اتصال رزان ولاماني وضرورة فتح الممرات الإنسانية.

لكن يمضي الزمن بسرعة دون معرفة أي معلومات عن رزان ووائل وسميرة وناظم وعن مصيرهم، وبقيت القضية صندوقاً أسود مغلقاً يكتم أسرار هذه الملف بانتظار أن يرى النور لكشف الحقيقة.

الرَّجُل والمرأة بينَ (الاعتراف بالآخَر) و(الاعتراف أمامَ الآخَر)

د. مازن أكثم سليمان *

ما من شكٍّ عندي أنَّ العلاقة بينَ الرَّجُل والمرأة في مجتمعنا العربيّ المُعاصِر (حبّاً أو جنساً أو صداقةً)، هيَ علاقة مأزومة؛ وكلامي هُنا ليسَ تعميميّاً، بقدر ما هو قائم على منحىً ما من مُلامَسة القيَم المُهيمنة على الأفراد والمجتمع، وهذا لا ينفي وجود تجارب جميلة وناجحة، نسبيّاً، في هذا المضمار.

لكنَّ هذه العلاقة، على نحوٍ عامّ، محكومة بجُملة مُحدِّدات تنهضُ على اهتزاز الثِّقة المُتبادَل بينَ الطَّرفين، إنْ لم أقلْ: إنَّها تنهضُ على فُقدان الثِّقة بالكامل!

لعلَّ أيّ تفكيك لإشكاليّة (فقدان الثِّقة) بينَ الرَّجُل والمرأة، ولإخفاق التَّواصُل البنّاء والجميل بينهُما، ينبغي أنْ ينطلقَ أوّلاً من السُّؤال الآتي: كيفَ يتمّ تأسيس العلاقات بينَ الطَّرفين؟ فالخلل الماثل للعيان، أو على الأقلّ، إنَّ هذا الخلل المُفترَض، يكمنُ في عدم بناء العلاقة بينهُما على أسُس أصيلة، كما أعتقد.

ولا يعني القولُ بضرورة بناء العلاقة على (أسُس/ أساسات) أصيلة أنّنا نضعُ منظومة قيَم معياريّة مُحدَّدة، أو نُؤطِّرُ العلاقة بقواعد أخلاقيّة ثابتة وساكنة ومُتعالية، أو نقولُ بمرجعيّات مُسبَقة ومُعيَّنة. فالعلاقة بينَ الرَّجُل والمرأة محكومة، حتماً، باختلاف الخيارات الفرديّة، من جانب أوَّل، وباختلاف الخلفيّات الاجتماعيّة والثَّقافيّة والاقتصاديّة، من جانبٍ ثانٍ. لكنْ -وبوجود هذه الخلفيّات واختلافها ونسبيتها- يجب أنْ تكونَ العلاقةُ الغنيّة، على الأقلّ نظريّاً -ومهما كانت سطوة تلكَ الخلفيّات والمرجعيّات- شبيهةً بتدفُّق الحياة، ومفتوحةً على الحُرِّيّة والتَّجربة والمجهول.

غيرَ أنَّهُ لابُدَّ هُنا من تأصيل المسألة والتَّساؤل: هل يُمكنُ تأسيس علاقة ماتعة وثرّة وجميلة في ظلّ مُناخ سياسيّ واجتماعيّ واقتصاديّ وثقافيّ تنميطيّ وتأطيريّ مأزوم ومُتعفِّن وقائم على مُصادَرة الخُصوصيّة والفرديّة والجَمال؟

أزعمُ أنَّ إشكاليّة العلاقة بينَ الرَّجُل والمرأة هيَ، في مُستوىً عميق منها، إشكاليّة مجتمع وثقافة وتربيّة، وهذا ليسَ اكتشافاً؛ فلا تحرُّر للحُبّ والجنس والصَّداقة بينَ الجنسين من دون تحرُّر سياسيّ واجتماعيّ شامل، إلّا أنَّ الهدف المرجوّ، على الأقلّ في هذا النَّصّ، يكمنُ في مُحاوَلة تقديم وصف أوَّليّ للمسكوت عنه في هذه المسألة، واستنطاق الأبعاد الفرديّة للعلاقات، وطرائق انبساطها وتعيُّنها الوجوديّ، من حيث المبدأ.

إنَّ أوَّل خُطوة لتحرير العلاقة بينَ الرَّجل والمرأة من القيود القاتلة، في اعتقادي، تكمنُ فيما أدعوه (الاشتغال على الذّات الفرديّة)؛ فكيفَ لذات إنسانيّة (رجُل أو امرأة) أنْ تستطيعَ التَّواصُل والتَّفاعُل والأخذ والعطاء مع (شريك/ شريكة) لها، وهيَ ذات فقيرة غير مُمتلئة بنفسها وبوعيها وبوجودها؟

فالكارثة المُتكرِّرة في مُجتمعنا تكمنُ في لُجوء الرَّجُل والمرأة إلى بعضهما لتعويض النَّقص؛ أي بدافع وهم تحقيق التَّوازن الشَّخصيّ والحياتيّ بوجود الآخَر المُكمِّل (خُرافة النِّصف الثّاني في دلالتها التَّداوليّة الشّائعة)، وهذا لعمري أسوأ ما يحكمُ على العلاقات بالإخفاق؛ إذ لا نصف ثانٍ للفرد الحُرّ المُستقلّ بهذا المعنى المُستهلَك أوّلاً، وثانياً، ينبغي أنْ تتأسَّس أيَّ علاقة على فعاليّة التَّشارُكيّة والتَّفاعُل، لا على وهم الاندماج والتَّماهي، وثالثاً، كيفَ لذاتٍ مُغتربة عن نفسها أنْ تُغني وتغتني بآخَر مُغترِب عن نفسه أيضاً؟

إنَّ عدم اشتغال الذّات الفرديّة على نفسها وثقافتها وتوازنها الكيانيّ يعني، بمعنىً ما، ليسَ فقط السُّقوط في الاغتراب الشَّخصيّ؛ إنَّما الإذعان للاغتراب الجمعيّ (السِّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ)، وخطرُ هذا الاغتراب ينطوي، على نحوٍ رئيس، في ارتداء الذّات (الرَّجُل أو المرأة/ سواء أكانت العلاقة علاقة حُبّ أو جنس أو صداقة) قناعَ التَّكاذُب والتَّناقُض والازدواجيّة، ورُبَّما كانَ هذا القناع هو أُسّ أزمة فُقدان الثِّقة، والإخفاق في علاقات الطَّرفين في مجتمعنا.

وهكذا، تتسلَّلُ ألاعيبُ التَّكاذُب إلى أساسات بناء العلاقة، وما يُبنَى على باطل سيكونُ مصيرُهُ السُّقوط عاجلاً أم آجلاً، ولا سيما في ضوء غياب الصَّراحة والجُرأة والوضوح في طرح كُلّ طرف لما يُريدُهُ من الآخَر (حُبّاً أو جنساً أو صداقةً)، وهذا ما أدعوه بمفهوم (الاعتراف أمامَ الآخَر)، والذي يكتملُ نُضجاً وبنياناً عبرَ مفهوم (الاعتراف بالآخَر).

يقودُنا مفهوم (الاعتراف بالآخَر) مُباشَرَةً، إلى نقد البنية المركزيّة البطريركيّة الذّكوريّة في مُجتمعنا، فالرَّجُل ما زالَ محكوماً، إلى حدٍّ كبير، بازدواجيّة العلاقة مع المرأة: من جانبٍ أوَّل، هوَ يُريدُ التَّواصُل معها (حُبّاً أو جنساً أو صداقةً)، ومن جانبٍ ثانٍ، هوَ يعجزُ عن مُفارَقة نظرته الشُّعوريّة واللّاشعوريّة (الدّونيّة) إليها، وأنَّها مجرَّد (آلة صمّاء) مخلوقة سواء لمنح الحُبّ أو لمنح الجنس أو لكليهما معاً، لا بوصفها إنساناً كاملاً، وندّاً مُكافئاً، وشريكاً حقيقيّاً في التَّفاعُل والأخذ والعطاء، في الوقت نفسه.

لعلَّ أزمة عدم الاعتراف بـ (الآخَر/ الأنثى الإنسان) من جهة الرَّجُل، هيَ أزمةُ ازدواجيَّةٍ أخلاقيّة،

ونتيجةُ صراعٍ مريرٍ ومُستمرّ داخل وعيه وفكره بينَ الموروث المُتخلِّف الذي يشدُّهُ، دائماً، إلى الوراء، والحياة الجميلة والمُغرية والعصريّة التي تُنادي قلبَهُ وجسدَهُ وكينونتَهُ.

وبهذا المنحى نلاحظُ كيفَ تتعمَّمُ مفاهيم مُعيقة أو مُحطِّمة للعلاقات في مُجتمعنا، وهيَ مفاهيم مُتّصلة، على نحوٍ مُباشَر، بمنظومة القيَم الأخلاقيّة السّائدة (وفي مُقدِّمتها مفهوم الشَّرف وتابعيّة المرأة للرَّجُل)، والقائمة على الفُصام والازدواجيّة والموقف الدُّونيّ تجاه المرأة مثل شُيوع فكرة أنَّ: (الرَّجُل هو المُفترس الذي "يأخذُ/ يربحُ" من المرأة)، وفكرة أنَّ: (المرأة هيَ الفريسة التي "يُؤخَذُ منها"/ تخسرُ إزاءَ الرَّجُل)، (ووو...إلخ).

وتتشابكُ هذه القيَم المأزومة مع حالة التَّكاذُب وادّعاء التَّحرُّر التي يُمارسُها الرَّجُل تحتَ باب عدم (الاعتراف أمامَ الآخَر)، مثل تقديم الذّات نفسَها لـ (الآخَر/ المرأة) عبرَ (أقنعة لفظيّة) مُفرَّغة من مضامينها، ولا تقولُ غايتَها الصَّريحة، كالعبارتين المُستهلَكتين والمُتهافتَتين الآتيتين: (أنا رجُل غير سعيد مع زوجتي)، وهيَ، بالتَّأكيد، مقولات/ مُمارَسات، فضلاً عن سطحيتها وسذاجتها، تُزيِّفُ الوعي، وتُسمِّم الوجود، وتُصادر جماليّات علاقات الحُبّ والجنس والصَّداقة بينَ الطَّرفين، إلى أقصى الحُدود.

في مُقابل ذلكَ، وكردّة فعل أنثويّة، ظهرَتْ منظومة أفكار وقيَم اغترابيّة عند نساء كثيرات، وهذا ما يتجلّى بدخولهنَّ، أيضاً، في دائرة فقدان المُصارَحة أوّلاً؛ أي الابتعاد عن مفهوم (الاعتراف أمامَ الآخَر)، وفي بنائهنَّ العلاقة مع الرَّجُل، ثانياً، على غايات نفعيّة ومصلحيّة وتبادُليّة، وعلى مُقايَضات تمحو جماليّات الحُبّ والجنس والصَّداقة، وتبدو في مُحصِّلتها، استسلاماً وتعميقاً ومُجاراةً للنَّظرة الذُّكوريّة الفحوليّة الدّونيّة تجاه المرأة، ونمطاً من تسليع الحُبّ أو الجنس أو الصَّداقة، وتسويغ ذلكَ تحتَ عنوان: (يحقُّ لي اقتناصَهُ مثلما يقتنصُني هوَ).

ويبدو لي أنَّ أزمة عدم (الاعتراف أمامَ الآخَر)، بما هيَ أزمة فقدان ثقة بالذّات وبالآخَر، في آنٍ معاً، وبما هيَ، أيضاً، ذات أُسُس وخلفيّات سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة، قد دفعَتْ نسوةً كثيرات ممَّن ساروا في ركاب التَّيّارات النَّسويّة المُعاصرة (وأنا في هذا السِّياق لا أُعمِّم بالتَّأكيد، لكنَّني أُحاولُ أنْ أرصدَ بعض النَّماذج المُتعيِّنة في الواقع، وضمنَ رؤية تتوخَّى النِّسبيّة) إلى مُواجَهة تطرُّف الذّكور بتطرُّف مُقابل يقومُ، أيضاً، على أنماط سُلوكيّة وخطابيّة تنطوي على عدم (الاعتراف بالآخَر)، وهُنا تظهرُ مُبالَغاتٌ مُتعجِّلة، في أحيانٍ كثيرة، ترمي الرَّجُلَ، تلقائيّاً، في قفص الاتِّهام، وتُلغي الفرديّة والاختلاف والخُصوصيّة بينَ الذُّكور، كأنْ تتمَّ مُحاكمتُهُم، آليّاً، تحتَ دعاوى (التَّحرُّش) أو (تبخيس إنسانيّة المرأة)، والإشكاليّة هُنا ليستْ، في بداهة التَّجريم الجذريّ للتَّحرُّش، أو في ضرورة الإدانة الحاسمة للانتقاص من إنسانيّة المرأة؛ إنَّما في تعقيدات التَّساؤل المُركَّب والمُتراكب عن كيفيّة إيجاد المعايير الصِّحّيّة والصَّحيحة للتَّمييز بينَ التَّحرُّش، ومُحاوَلات التَّواصُل الطَّبيعيّة، أو إبداء الاهتمام، أو الإعجاب، أو التَّعبير عن الرَّغبة/ الشَّهوة، من قبَل الرَّجُل تجاه المرأة.

إذاً؛ ثمَّةَ اختلال في مُعادَلة (الشَّراكة والنِّدّيّة) بينَ الرَّجُل والمرأة، وهوَ اختلال كامنٌ في مُسبَّقات الوعي الحاكمة، إلى حدٍّ بعيد، وفي الكيفيّات المُرتبكة لانفتاح التَّجارب، وفي الفقر إلى خبرة الارتماء الحُرّ في مُنعرجات الوجود.

ولعلَّ إحدى أهمّ المُضمَرات غير المُفكَّر فيها، في هذه الإشكاليّة، فضلاً عن كونها أزمة فكر وهُويّة، هيَ، أنَّها في عُمقها، إشكاليّة تنطوي على سيادة ثقافة الثُّنائيّات المركزيّة التَّقابُليّة، وما تنهضُ عليه من إحالات دلاليّة تفاضُليّة جامدة لمفاهيمَ ينبغي إعادة النَّظر فيها جذريّاً، كإحالات المفهومين الشّائعين الآتيين:

1 - نحنُ نحتفي بالرُّجولة لا بالذُّكورة: "الرَّجُل غير الذَّكر"/ وهوَ ما يدلُّ على الاحتفاء بالأخلاق حسبَ مفهومها السّائد جمعيّاً لا بالشَّهوة = الانحلال.

2 - نحنُ نحتفي بجَمال الأنوثة لا بجَمال الجسَد: "الأنثى غير المرأة"/ وهوَ ما يدلُّ على الاحتفاء بالأخلاق حسبَ مفهومها السّائد جمعيّاً، أيضاً، لا بالشَّهوة = الانحلال.

وهذه الرُّؤية الثُّنائيّة التَّفاضُليّة هيَ ليستْ، في نهائيتها وتعاليها، سوى رؤية (تأثيميّة) للحُبّ أو للجنس أو لكليهما معاً، وهيَ أيضاً ذات بُعد طُهرانيّ وهميّ ومُنقطِع عن الواقع وكيفيّات التَّواصُل وطبيعة البشر، ولهذا الأمر بالتَّأكيد مرجعيّات اجتماعيّة وثقافيّة راسخة قد يأتي في مُقدِّمتها النَّسقُ المعرفيّ القائم على الثُّنائيّة الحدِّيّة التي تفصل الجسد عن الرُّوح.

وأخيراً، يبدو أنَّهُ لابُدَّ في إطار السَّعي إلى (التَّنوير) الثَّقافيّ والتَّغيير الاجتماعيّ/ السِّياسيّ، من إعادة تعريف مفاهيم كثيرة تمَّ حبسُها في إطار تفسيرٍ أحاديٍّ مُسبَّق ويقينيّ وضيِّق كمفهوم الوفاء، ومفهوم الخيانة، ومفهوم أبديّة العلاقة، ومفهوم قدسيتها المُطلَقة، وغير ذلكَ من الرُّؤى والمُمارَسات المُعمَّمة بوصفها مُسلَّمات حاسمة، ينبغي تحريرُها عبرَ ديناميّة الفعل والتَّفاعُل وإعادة تشييد فجوات الوجود ووعيه الفرديّ والجمعيّ.

وهيَ الأمور التي ينبغي أنْ تتعيَّنَ في مُنبسَط الكينونة في ضوء فهم أيّ تواصُل بينَ الرَّجُل والمرأة بوصفه ابناً شرعيّاً لسُيولة الحياة، وللتَّغيُّرات الطَّبيعيّة فيها، وللانفتاح على المُحتمَل والمجهول ومُراكَمة الخبرات الإنسانيّة، بدلاً من الانغلاق على مفاهيم مثاليّة مُتعالية وغير واقعيّة، فالحبّ أو الجنس أو الصَّداقة (أو جميعهم معاً) تجارب إنسانيّة مُنغرسة في قلب نسبيّة الزَّمن والعيش، ومُتّصلة عميقاً بأخلاق الاعتراف، من جانبٍ أوَّل، وبثقافة الفرح والحُرِّيّة، من جانبٍ ثانٍ، وبالبَحث المحموم للبشر عن السَّعادة في ضوء ارتباطها الكيانيّ بالبُعد الجماليّ (العيانيّ والكُلِّيّ) للوجود، من جانبٍ ثالثٍ وأخير.

* شاعر وناقد سوريّ

"الإنكار- التنديد"
معرض تشكيلي في ألمانيا

حسن عارفة

شهدت مدينة فايمر الألمانية يوم السبت 11 كانون الأول/ ديسمبر الحالي، افتتاح معرض "الإنكار- التنديد" بمشاركة الفنان السوري/ الألماني خالد عارفة، بموضوعه القديم- الجديد عن المأساة السورية، محاولاً عبر مشاركته إحياء ذكرى المعتقلين/ات والمختفين/ات قسرياً في سوريا.

ويُقام المعرض في غاليري "Acc" بالمدينة التي كانت عاصمة للثقافة في أوربا عام 1999، ضمن فعالية فنية مشتركة مع 11 فناناً من ألمانيا ودول أخرى، تحتضن أعمالهم جميعاً صالات متعددة الاستعمالات، لتتفرد أعمال الفنان السوري بقضية من أهم قضايا السوريين الباحثين عن الحرية حالياً وهي قضية المعتقلين والمختفين قسرياً.

عارفة من مواليد دمشق 1974، خريج كلية الفنون الجميلة بدمشق باختصاص النحت، ومقيم في ألمانيا منذ عام 2006، يقول في تصريح لطلعنا عالحرية: "الفن غالباً ما يحمل رسائل مشغولة بأدوات الفنان، هذا ينطبق على كل أنواع الفنون البصرية والسمعية"، مضيفاً: "قبل فترة وصلتني الدعوة للمشاركة في معرض تحت عنوان (التنديد.. والإنكار)، لفترة كان تفكيري محصوراً بمعنى الكلمة، موضوع المعرض، والتي يمكن أن تأخذ معنى آخر كالوشاية، بهذه اللحظة لم أفكر إلا بصور قيصر، وبما حصل بسوريا بعد خروج الناس إلى الشارع والمطالبة بالحرية".

شارك الفنان بعدة أعمال ما بين اللوحة والتركيب الفني، ليجسد مأساة المعتقلين والمختفين قسرياً في سوريا، ومحاولاً دمج المتلقي في العمل الفني؛ وذلك حين عرض مجسماً لباب المعتقل تتوسطه صورة رئيس النظام السوري بشار الأسد، وعلى الباب -الذي هو بطبيعة الحال كالمعتقلات السورية- وضع مرآة خلف القضبان، ليرى كل شخص نفسه خلف هذه القضبان ولو لثانية، وليشعر بمأساة المعتقلين وراء قضبان النظام السوري!

كان لهذا المعرض خصوصية، بتقديمه وجبة دسمة من اللوحات المعبرة عن أحوال المعتقلين والمختفين قسرياً في سوريا.

وكانت مشاركات الفنانين الآخرين في المعرض تندد وتستنكر المواضيع الحياتية في هذا العالم؛ كمادة البلاستيك وتأثيرها السلبي على الطبيعة والبشر، وكذلك الأمر لجائحة فايروس كورونا الذي غزى العالم.

كما شارك الفنان عارفة بجدارية قديمة منذ العام 2015، وتحكي قصة النزوح السوري إلى أوروبا، برموز وإشارات للموت والرعب الذي عاشه السوريون في رحلتهم نحو النجاة.

ثمة جدارية أخرى عمل عليها الفنان عارفة لهذا المعرض، واستوحى فكرتها من صورة نزوح أهالي اليرموك من ذاكرتهم وبيوتهم وحياتهم.. إلى أماكن أخرى في دمشق.

من هنا ربط الفنان في أعماله بين مأساة المعتقلين والمختفين قسرياً، ومأساة التهجير التي ضربت مناطق سورية كثيرة، حيث عرض هذه الجدارية للقطة الأيقونية التي وثقت تجمع المهجرين من مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين عام 2018.

"الأفكار تتوالد وتنضج مع مرور الوقت وخروج الناس في صورة مخيم اليرموك ما زالت أمامي .. ومن هنا بدأت بالعمل للمشاركة بالمعرض" يقول عارفة. ويتابع: "كيف يمكن في لوحة أن أظهر وجع وألم شعب كامل تهجر في ساعات من ذاكرته وحياته وبيته؟ هذه لوحة اليرموك التي تظهر حال السوريين المهجرين من الداخل إلى الداخل، أو من الداخل إلى الشتات ...".

بين اللوحتين نشاهد عملين صغيري الحجم يحملان سنوات من عمر المعتقل، هنا يعلق الفنان عارفة: "كيف ممكن أن يكون شعور المعتقل بالوقت والأيام؟ وخصوصاً حين يبدأ بعدّ

عن قسوة المصير المجهول ومعناه

سميح الصفدي

لا يسع المرء إلا أن يساند المطالب المحقة لذوي المفقودين في الكشف عن مصير أحبائهم، وأن يدعم سعيهم لإيجاد السكينة.. سكينة أرواح المفقودين وأرواح محبيهم في مصير معلوم، حقّهم في دمل جراحهم، وفي بدايات جديدة من الصعب أن تكون إلا بناءً على يقين ما.. مهما كان مؤلماً وقاسياً.

وفي هذا السياق لا بدّ أن نتحدث عن الصوت الأعلى في هذه المطالبات، وهي الأصوات التي تطالب بالكشف عن مصير فرسان الثورة الأربعة رزان زيتونة وسميرة الخليل ووائل حمادة وناظم الحمادي، قيادات الحراك السلمي وتنسيقيات الثورة الذين اختفوا في ظروف غامضة في مدينة دوما التي كانت تخضع لسيطرة جيش الإسلام المحسوب على الثورة.

هل يجوز لنا أن نضع جانباً -ولو لبرهة قصيرة- عدالة هذه المطالب وأهميتها على الصعيد الشخصي لذوي المختفين؟

ما هي المصائر المحتملة للأبطال الأربعة؟ وأي من تلك المصائر يليق بأحلامهم الثورية؟ كان هناك ثلاثة مصائر محتملة عموماً لثوار سوريا السلميين: أولها مصير القتل على أشكاله المختلفة.. قصفاً، قنصاً، غدراً.. أو تعذيباً، ثانيها مصير الاعتقال في أقبية النظام أو المعارضة المتطرفة، وثالثها مصير الهرب باحتمال النجاة في قوارب الهجرة واللجوء، وهناك في حياة اللجوء ليس ثمة احتمالات كثيرة، فإما العيش على المعونات التي تقدمها الحكومات الغربية، وإما السعي للنجاح الفردي وتحقيق الذات بعيداً عن الهموم الوطنية، وإما الانخراط في سوق التجارة الثورية على اختلاف أشكالها.

هل يجوز لنا كثائرين حالمين ألا نتمنى هذه المصائر لأبطالنا؛ فلا نريد اكتشاف رفاتهم المدفونة في مقبرة جماعية، ولا نريد اكتشاف صورهم كمقتولين تحت التعذيب، ولا كمعتقلين في أقبية النظام يذوقون شتى أنواع الانتقام والتعذيب من سجانيهم الساديين، كما لا نريد أن نراهم إلى جانب تجار الثورة في المدن الغربية، هؤلاء الذين يحلو لهم أن يختزلوا دور الأربعة القيادي في الحراك السلمي والتنسيقيات على مستوى سوريا كلها إلى "موثقي انتهاكات"..!

كان يمكن للمطالبة بالكشف عن مصير الأربعة وآلاف المفقودين غيرهم أن يكون لها معنى آخر في سياق انتصار، لا في سياق الهزيمة، في سياق إحقاق العدالة والمحاسبة، لا في سياق التوثيق والتقارير التي لا تساوي حبرها.

لست أماري في أهمية المطالبة بالكشف عن مصائر جميع المفقودين، وأعلم تماماً مدى فانتازية طرحي هذا وربما ترفه المبتذل، لكن يبدو من زاوية ما أن أرواح الفرسان الأربعة وأشباههم على امتداد الوطن المدمّر ترفض الامتثال لهذا الأمر الواقع، وربما كان مصيرهم المفتوح على المجهول هو اللانهاية الأجمل لحلمهم.. لحلمنا الموؤود في وطن يشبه الأوطان.

أيامه في السجن كخطوط على الجدار أربعة وبالعرض واحد ليكملوا الخمسة أيام"!

ولم يخلُ المكان أيضاً من صور متفرقة لمعتقلين ومعتقلات، تعمّد النظام محوَ أسمائهم، واستبدال أرقام بها، في تعبير رمزي عن واحدة من أسوأ الانتهاكات في هذه المعتقلات، حين يتحول المعتقل إلى مجرد رقم، "وكل ذنبه أنه قال "لا" لنظام لم يعتد على سماع كلمات على غير منوال: نعم، حاضر، أمرك وغيرها".

"منذ العام 2016 بدأت الخروج من المأساة السورية كموضوع لكل الأعمال التي أنجزتها بين عامي 2014 وحتى عام 2016، ومن بعد هذا التاريخ، بدأت البحث عن موضوع يمثل الحال الذي وصلنا له كسوريين مشتتين في كل بقاع المعمورة" يقول خالد عارفة.

ومع كل الانكسارات التي ضربت الثورة السورية، حاول البحث عن معانٍ أخرى لشعارات الثورة الرئيسية، موضحاً: "بدأت أميل وأبحث عن معنى الهوية، الانتماء، والجذور.. وكانت الطبيعة تأخذني إليها. وبدأت تتبلور فكرة الأشجار كموضوع. والشجرة كما الأشخاص بحاجة إلى جذور في الأرض لتنمو".

هكذا كان المعرض فرصة للفنان الممنوع من دخول سوريا، لتأكيد قوة جذوره في الثورة، عبر هذه الأعمال، حيث يستمر المعرض حتى العشرين من شهر شباط/ فبراير المقبل.

وكان الفنان خالد عارفة قد شارك في العديد من المعارض بعدة مناطق ألمانية، ولم تغب عن مجمل أعماله القضية السورية، بثورتها وأفكارها، خيباتها ونجاحاتها، هزائمها وانتصاراتها، وبطبيعة الحال، أحد أهم شعاراتها "الحرية".

في ختام تصريحاته يؤكد عارفة أن "الفن بكل مفرداته وأدواته قادر على مساندة أي قضية في الحياة، خصوصاً في زمن التحول الرقمي" حسب وصفه، "الصورة الآن تصل إلى العالم بدقائق معدودة، لكن فكرتي ما زالت بأني أريد أن أجعل من الناس حولي، وخصوصاً المجتمع الذي أعيش فيه، يعرفون مدى الاستبداد والظلم الذي عايشه السوريون على مدار عقود منذ استلام الأسد الأب للسلطة في سوريا عام 1970" يختم حديثه.

طفولةٌ مكدّرة.. الأطفال في ريف حلب بين الحاجة والاستغلال!

حسين الخطيب

ارتفعت نسبة الأطفال العاملين في ريفي حلب الشمالي والشرقي، جراء الظروف المعيشية القاهرة التي دفعتهم إلى الخوض في مضمار العمل لإعالة أسرهم ومساندتها في تحمل قسوة الظروف الاقتصادية المرهقة، على الرغم من التحديات التي ترافقهم خلال الأعمال الشاقة التي لا تناسب أعمارهم.

الطفل أكرم (12 عاماً)، يعمل في ورشة إصلاح محركات السيارات في بلدة تل بطال بريف حلب الشرقي، منذ شهر على الأقل بعدما غادر المدرسة في سبيل مساعدة والده في مصروف أسرته المكونة من 9 أشخاص، بينهما والديه.

يحاول أكرم مساعدة والده في تحمل نفقات البيت، حيث يعمل والده معمارا، في القرى والبلدات المجاورة، ولا تتجاوز يوميته 50 ليرة تركية، وهي 3.30 دولار أمريكي، وهذه لا تكفي مصروفاً يومياً لأسرته، مما اضطر الطفل للالتحاق بالعمل، مقابل أجر يومي لا يتجاوز 30 ليرة تركية 2 دولار أمريكي.

كان أكرم متفوقاً في مدرسته، كما أوضح خلال حديثه لمجلة "طلعنا على الحرية"، لكن الظروف القاسية التي عصفت بالأسرة جعلت منه عاملاً يبحث عن رزقه في المنشآت الصناعية. بينما يمتد وقت العمل لنحو 9 ساعات في اليوم؛ حيث يخرج في الساعة 8 صباحاً من منزله الواقع في قرية تل بطال، إلى مركز تجمع المنشآت الصناعية في القرية، ويبقى في العمل يقوم بواجباته تجاه معلم الورشة التي يعمل بها حتى الساعة 5 مساءً.

وتتنوع المهن والحرف التي يعمل بها الأطفال في ريفي حلب الشمالي والشرقي، إلا أن معظمها تشكل خطراً على مستقبلهم، في ظل ازدياد متواصل لأعداد الأطفال الذين التحقوا بسوق العمل، لكسب الرزق وتغطية احتياجات معيشية، لا يستطيع معيل واحد من الأسرة تغطيتها.

أما الطفلة رُبا (10 سنوات)، فتخرج من منزلها الواقع في مدينة مارع بريف حلب الشمالي، بشكل يومي بعد عودتها من المدرسة ظهراً، بينما يكون خروجها إلى العمل أيام العطلة في التاسعة صباحاً، تحمل على كتفها حقيبة إكسسوار، تجول بها على المنازل الموجودة في الأحياء التي باتت تحفظها مثل اسمها، بحسب ما أشارت خلال حديثها لمجلة "طلعنا على الحرية".

عند وصولها من المدرسة تضع على ظهرها الحقيبة وفي يديها ما تيسر من الطعام المتوفر في المنزل، لتخرج مسرعةً إلى العمل، وتبدأ جولتها المعتادة، حيث تطرق الفتاة منازل الناس وتسألهم عن رغبتهم في الشراء وغالباً ما تحصل الفتاة على موافقة أصحاب المنزل، تعرض عليهم بضائعها المتوفرة لديها والتي اشترتها والدتها التي تعمل في بيع الإكسسوار أيضاً من داخل منزلها.

وقالت الفتاة: "إن والدي عاطل عن العمل.. يعمل يومين في الأسبوع في حال كان العمل متوفراً، مقابل أجر يومي لا يكفي لوجبة طعام واحدة.."، وتتابع: "بدأت والدتي بشراء الإكسسوار من محال الجملة المتوفرة في الأسواق، وتبيعها في المنزل، وأنا أتجول ببعض البضائع".

وعن طموحها أضافت رُبا: "أحلم بامتلاك الألعاب التي أراها خلال تجوالي في المنازل، أتمنى لو أجلس في منزلي وألعب بها في وقت فراغي من المدرسة، بدل العمل والتجوال بين الأزقة والشوارع".

بينما يتعرض معظم الأطفال سواءً الذكور والإناث الذين يعملون في ريفي حلب الشمالي والشرقي، للكثير من الإهانة من قبل أصحاب المنازل بحجة الإزعاج، وبعض الأسر ترفض دخولهم إلى منازلهم، إلى جانب الاعتداء اللفظي عليهم.

أبو صافي نازح ليس لديه مكان يقيم فيه سوى الخيمة الواقعة بالقرب من مدينة اعزاز، ويبدأ عمله في الساعة السابعة مساءً بعد انخفاض أعداد الناس في الشوارع، حيث يتجول على مكبات النفايات، قرب المخيم العشوائي، حيث تتجمع هناك مئات العائلات وتشكل مجتمعات "فقيرة تعيش من قلة الموت" كما يصف الرجل خلال حديثه لمجلة "طلعنا على الحرية".

ويوضح: "لا توجد لأبنائي مدرسة في النهار.. أرسلهم على مكبات النفايات المتوزعة في محيط المدينة، يجمعون منها كل ما يشاهدونه من قطع الحديد والبلاستك وغيرها، وعند المساء يتابعون العمل في النفايات معي على "الطرطيرة"، لنبيع ما جمعناه في اليوم التالي". ويشكل هذا العمل مصدر الدخل الوحيد لأبو صافي، الذي يحصل في نهاية كل يوم على مبلغ يتراوح ما بين الـ 30 والـ 50 ليرة تركية.

وتعتبر عمالة الأطفال من أكثر التحديات التي تواجه السوريين، ولعل "الأسباب الرئيسية التي ساهمت في عمالة الأطفال هي الفقر وفقدان المعيل" بحسب ما أشار الناشط الإعلامي مصطفى بطحيش خلال حديثه لـ "طلعنا على الحرية".

ويضيف: "كما أن العائلات التي لم تفقد معيلها لديها أطفال يعملون ويزاولون مهناً صعبة للغاية، لا يمكن أن يتحملها الكبار، لكن الحاجة أجبرتهم على العمل، لأن معظم الأهالي يعانون من انعدام مصادر الدخل وانخفاض قيمة الأجور، في ظل تردي معيشي متواصل تتعرض له المنطقة".

وأشار إلى أن أصحاب العمل يطلبون عمالاً من الأطفال بسبب انخفاض أجورهم عن باقي الفئات العمرية، مؤكداً أن "معظم هؤلاء الأطفال تحولوا إلى أشخاص مسؤولين عن أسرة، ولا يمكنهم أن يقروا بأنهم مازالوا أطفالاً، لأن تغطية احتياجات أسرهم تفوق كل الاعتبارات الأخرى".

تضاف إلى كل تلك المهن مهنة التسول، التي أصبحت لغة العصر الحالي في ظل الظروف المعيشية، وقلة فرص العمل، حيث يواجه الأهالي يومياً العديد من الأطفال يعملون على طلب المال من المارة بسبب حاجتهم الماسة لتأمين طعام أسرهم.

ومع كل ذلك الانتشار لعمالة الأطفال والتسول في ريفي حلب الشمالي والشرقي، لا تكفي جهود المنظمات الإنسانية والحقوقية لمواجهة الواقع المتردي الذي وصل إليه الأطفال، في ظل تعرضهم للاستغلال من قبل أصحاب العمل، مع مستقبل مجهول بات أمراً واقعاً عليهم.

الحياة الجامعية لمدينة الرقة..
عودة نبض الحياة بعد توقّف دام سنوات

الرقة: عبد الله الخلف

لم يكمل عبد الحميد النايف دراسته الجامعية نتيجة ظروف الحرب التي عصفت بمدينته الرقة، ولم يتمكن من الذهاب لمناطق سيطرة النظام لاستئناف تعليمه خوفاً من ملاحقة الأجهزة الأمنية، لـتظل الشهادة الجامعية حلماً يراوده منذ انقطاعه عن الجامعة أواخر سنة 2013، وهذا الشاب البالغ من العمر ثلاثين عاماً استطاع أخيراً هذه السنة العودة لمقاعد الدراسة، بعد أن تم افتتاح جامعة الشرق التابعة للإدارة الذاتية بمدينة الرقة في تشرين الثاني/ نوفمبر الفائت.

وفي حديثه مع مجلة (طلعنا عالحرية) وصف عبد الحميد افتتاح الجامعة بـ"الفرصة الذهبية" التي أتيحت له ولكثيرين مثل حالته لاستكمال طموحه في إتمام دراسته الجامعية، ويقول: "كنت أدرس في كلية التربية بجامعة الفرات قبل ثمانية أعوام، ولكن بعد تحرير الرقة من قوات النظام تم تعليق الدوام في الجامعة، وانصرفت عن التعليم منذ ذلك الحين، واليوم تتاح لي الفرصة من جديد للعودة للجامعة".

وهو اليوم طالب في كلية العلوم التربوية- قسم التربية (معلم صف)، ويبدو سعيداً وهو يتبادل الأحاديث مع زملائه في الكلية، وأعرب عن ذلك بقوله: "استعدت مشاعر غابت عني لسنوات طوال، قاعة المحاضرات، مقهى الجامعة.. عودتي لهذه الأماكن الدافئة التي حُرمت منها تنسيني لحظات القصف المرعبة وسنوات حكم تنظيم داعش التي عشتها محروماً من الدراسة".

وتضم جامعة الشرق كليتين ومعهدين، وهي كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، والتي تضمّ قسم الأدب العربي فقط، وكلية العلوم التربوية، والتي تتألف من خمسة أقسام وهي: "تربية معلم صف- بيولوجيا- رياضيات -فيزياء -كيمياء"، بالإضافة لمعهد تقني قسم حاسوب ومعهد لغة إنكليزية.

وتم تشييد الجامعة على أنقاض كلية العلوم التابعة لجامعة الفرات سابقاً شرقي المدينة، ولم تفصح إدارة الجامعة عن التكلفة المادية لإنشائها، وتضم حالياً 110 طلاب بحسب د. خليل العلي نائب رئيس الجامعة.

ويقول د. خليل إن "الجامعة تعتمد على النظام الديمقراطي البعيد عن التوجهات السياسية، لتنمية القدرات البشرية في المنطقة باختصاصات مختلفة"، موضحاً بأنها الجامعة الرابعة في مناطق نفوذ الإدارة الذاتية بعد جامعات "عفرين بمدينة عفرين بحلب وروج آفا بالقامشلي وكوباني بريف حلب الشرقي".

وتابع قائلاً: "بدأنا بالمشروع قبل سنة، أولاً أعلنا عن طلب أكاديميين للتدريس في الجامعة، ولدينا حالياً كادر تدريسي يضم حملة شهادات دكتوراه وماجستير، بالإضافة لإجازات جامعية لذوي خبرات سابقة، والبعض منهم كانوا يدرّسون في الجامعات التابعة للنظام، ويبلغ عدد الكادر التدريسي 27، بالإضافة لـ 32 إداريين وموظفين في الجامعة".

ويلفت د. خليل إلى أنهم لم يتقيدوا بعمر محدد أو سنة معينة للشهادة الثانوية بالنسبة للطلاب، واستقبلوا جميع الأعمار والشهادات، وذلك "نتيجة ظروف الحرب وانقطاع الآلاف عن دراستهم في السنوات الماضية".

منوهاً إلى أنه "تم إنشاء سكن للطلاب القادمين من مناطق بعيدة في ريف الرقة وباقي مناطق شمال شرق سوريا، يضم أربع وحدات سكنية، اثنتين منها للإناث واثنتين للذكور، وتستوعب 600 طالب"، وبسبب عدد الطلاب القليل حالياً في الجامعة "تم قبول جميع الطلاب الذين تقدموا بطلب السكن في المدينة الجامعية التي تتوفر فيها جميع الخدمات الأساسية، والسكن مجاني بالكامل والدراسة بالجامعة أيضاً مجانية" وفق ما قال.

وحول عدم الاعتراف بالجامعة من أي جهة يقول د. خليل إنها ليست نقطة ضعف، مبيناً أن "الاعتراف ليس شهادة تعطى لنا من جهة أو دولة ما، الاعتراف نتاج عمل يحتاج لسنوات، ويعتمد على عدة جوانب، مثل كفاءة الهيئة التدريسية وجودة المنهاج ومدى فاعلية الجامعة وارتباطها بالمجتمع، هذه النقاط إذا حققناها ستعترف بنا الجامعات الخارجية".

مضيفاً بأن هناك مكتب في باريس تابع لمنسقية جامعات شمال وشرق سوريا يعمل على إنشاء علاقات بين جامعات شمال وشرق سوريا وعدة جامعات أوروبية للحصول على الخبرات والاعتراف من هذه الجامعات، لافتاً إلى أن جامعات روج آفا وكوباني وعفرين بصدد إرسال طلابهم للخارج للدراسات العليا في الجامعات الأوروبية المتعاونة.

وتتكلم إسعاف بليلو، السيدة الخمسينية والمنحدرة من مدينة اللاذقية والتي تعيش مع زوجها في الرقة منذ 24 سنة، وتم قبولها في جامعة الشرق لتصبح طالبةً في كلية العلوم التربوية قسم تربية معلم صف بأن ذلك كان حلمها منذ أن انقطعت عن دراستها في تسعينيات القرن الماضي نتيجة الزواج، وتقول: "كنت أدرس في كلية الآداب قسم الأدب الإنكليزي في جامعة تشرين، تزوجت ولم أكمل دراستي، شغلتني تربية ابنتي، واليوم ابنتي كبرت ولم يعد هناك ما يمنعني من إكمال دراستي، تقدمت لجامعة الشرق وتم قبولي، وأخذت إجازة من عملي، فأنا معلمة في إحدى مدارس الإدارة الذاتية".

وكانت الرقة قبل الحرب تضم جامعة الفرات الحكومية بالإضافة لجامعة الاتحاد الخاصة، وتم إغلاقهما بعد طرد قوات النظام عام 2013، وخلال فترة حكم تنظيم (داعش) بين عامي 2014 و2017 افتتح التنظيم جامعة خاصةً به، ضمت كلية طب بشري وأقساماً أخرى، ولكن الإقبال عليها كان ضعيفاً بسبب خوف معظم الأهالي من التنظيم وابتعادهم عنه.

آمال التغيير في واقع السوريين
الصورة الكبيرة (1-3)

عبد الله شاهين

يجد كل ذي قناعة اليوم حوله من الأحداث والأخبار ما يكفي لتزيد قناعته رسوخاً. هذا يعني كذلك بأن هنالك من الأحداث والأخبار ما هو كفيل بنقض تلك القناعة أو تغييرها. أنا حقيقة لا أعلم ما سيكون مآلنا نحن السوريين في العشرين سنة القادمة. وقد كتبت في طلعنا عالحرية ثلاثة مقالات متشائمة حول الواقع السوري (1) (2) (3)، والذي لا أعتقد أن هنالك الكثيرين ممن يختلفون معي حول بؤسه. إلا أن الثابت الوحيد الذي علينا أن ندركه هو أن دوام الحال من المحال. هذا لا يعني بالضرورة أن انقلاب الحال من سيء إلى جيد هو المسار الحتمي، فهنالك دائماً ما قد يكون أسوأ. ومن هذا أنطلق لأسرد بعض البوادر التي قد تخلق فينا أملاً بمستقبل أفضل. كما سأركز في هذه السلسلة على الفرص التي علينا استغلالها لجعل التغيير يسير في صالحنا.

علينا في البدء أن نفصل ما بين التغيير المحتمل في سوريا (بمختلف مناطق السيطرة وأنواعها) وما بين التغير المحتمل في السوريين النازحين والمهجّرين. فقد تتغير منطقة ما في سوريا نحو الأفضل دون أن يتحسن واقع السوريين نتيجة هذا التغير. كما أن تحسن واقع السوريين المهجرين لا ينعكس بالضرورة على حال سوريا ككل أو منطقة ما بشكل خاص. وأخصّ الحديث في هذه الثلاثية عن حال السوريين اللاجئين والنازحين داخل الأراضي المحررة.

علينا كذلك أن نميز ما بين قضية عودة المهجرين والنازحين وما بين تحسّن الأوضاع المعيشية. هذا الربط في أذهاننا غير بنّاء ولا واقعي في الأساس. فتقديرات الأمم المتحدة توضح أن أقل من 3% من اللاجئين هم من يعود إلى دياره. ولو أمعنا النظر في سوريا لوجدنا مخيمات الفلسطينيين وقد تجاوز عمر بعضها الستين عاماً. حتى في دول وسط أفريقيا، وبعد انتهاء الحروب الأهلية الطاحنة وعودة الأمن النسبي، نجد أن الكثيرين من سكان المخيمات لا يعودون إلى بلداتهم وقراهم الأصلية. كما أن التركيز على شرط العودة هو سبب في تأخر الاستقرار وتأخير كل الجهود التي يجب أن تبذل لتحسين الواقع المعيشي لهؤلاء المهجرين النازحين. هذه الجهود عليها أن تبدأ حالاً. وعلى الدول التي استقبلت لاجئين أن تدرك أن أراضيها ستكون وطن هؤلاء اللاجئين وأولادهم.

كما يجب أن نذكر بأن مأساة السوريين لم تبدأ في 2011؛ فالفقر في سوريا ليس حديثاً، بل إن اطلاعنا على حالة الفقر هو الحديث؛ فقبل ذلك كنا نسكن في كانتونات جغرافية واجتماعية كانت تمنعنا من رؤيته حتى عندما يكون أمام أعيننا. كانت مدارسنا على الدوام تفقد أطفالها إلى سوق العمل، وكان الكثيرون منا هم الزبائن الذين يشترون خدمات هؤلاء الأطفال البائسين بأثمان بخسة، دون أن يعترض أحدنا على هذا الفعل الشنيع.

ولا مشكلة النازحين هي الأخرى حديثة العهد بنا؛ فبالإضافة إلى مئات آلاف اللاجئين الفلسطينيين حول مدننا؛ كان في سوريا أكثر من نصف مليون نازح من المنطقة الشرقية منذ عام 2006، يسكن معظمهم في الخيام وبيوت الصفيح. ما حصل هو أننا بدأنا نرى أنفسنا بشكل أوضح، ونتعاطف مع أنفسنا بشكل حقيقي. هذا لا يعني أن حجم المأساة ثابت لم يتغير، فالحرب الشعواء التي خاضها الأسد على شعبه هي التي أنتجت حالة النزوح واللجوء والدمار التي أصابت نصف سكان سوريا، وجعلت من 90% من الباقين في مناطقه تحت خط الفقر.

لكن الحراك الثوري السوري لا شك فتح بيننا قنوات تواصل وعمل وتعاطف لم تكن موجودة من قبل، وهذا مكسب مهم يحسب في رصيد الحراك الشعبي.

مكسب آخر مهم هو تفتيت الدولة الشمولية التي أقامها الأسد الأب، والتي اختطفت منا الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. تلك الدولة التي حكمت بالنار والحديد لم يعد لديها ما يسد رمق زبانيتها، ناهيك عن قدرتها على سدّ الاحتياجات الأساسية لسكان مناطقها. وكذلك الحال في المناطق المحررة حيث أن السلطات الحاكمة، والتي تحاول ما تستطيع لتثبيت سطوتها في هذه المناطق، ما زالت أضعف من أن تحوز على الحياة الاقتصادية. وبالتالي فهنالك فرص أكبر للعمل الحر والجماعي. ما زالت هنالك العديد من العوائق التي تقف في طريق بناء اقتصادات جديدة وبديلة للاقتصاد الشمولي الأسدي، وللمنظومة المافيوية التي خلقها خلال العقود الماضية.

أصبحنا اليوم في وضع ذي سقف أعلى للعمل الإنتاجي، وعلينا استغلال هذا الواقع الجديد ما استطعنا، خصوصاً في المناطق المحررة. لا أقول إن المستقبل أمامنا مشرق، لكن أقول إن في جعبتنا بعض الأدوات التي سوف تجعله دون شك أفضل مما نحن عليه اليوم.

أنتَ تبتسم ليّ

بشرى البشوات

"إني أريد أن يقول لي أحدهم آسف، نحن نعتذر.. لكن لم يعتذر أحد منهم"!

الجملة التي رددها الممثل أرنولد شوارزنيجر في فيلم (Aftermath) المأخوذ عن كارثة أوبرلينغن، بعد تحطم طائرتين وموت جميع الركاب.

حصل الحادث بخطأ غير مقصود من مهندس الملاحة في تلك الليلة.

الممثل أرنولد شوارزنيجر والذي يلعب دور البطولة هو زوج وأب، وقد فقد في هذا الحادث زوجته وابنته الحامل، ثم رفض تعويض شركة الطيران، لأن الشركة وطاقمها لم تقدم أي اعتذار، أو تتأسف لموت الركاب.

يسعى أرنولد خلف المهندس صاحب الخطأ ويقوم بقتله، لأن المهندس أيضاً رفض أن يعتذر عن الموت، ولم يقل حتى كلمة آسف، واعتبر أن حادث تحطم الطائرتين هو مجرد خطأ.. خطأ وقد يحدث دائماً.

نحن في سوريا أيضاً أبناء وأشقاء وأصدقاء، وأزواج وزوجات ضحايا فقدوا وانفقدوا، ولم يقل لنا أحد ما كلمة: آسف!

كنت أظنني أستطيع الوقوف على مرتفع وألوّح لأبي

كنت أعرف أنني سأكتب هذه القصة يوماً.

كيف سأحبّ دمشق فيما بعد؟

كيف سآمنُها؟..

وكيف سأبتسم لمدينة لم تنقطع فيها الحياة عبر آلاف السنين من الحسنات والسيئات؟

هذه المدينة الغضة واليابسة في آن، اقتطعت مني أبّي!

في ربيع ما، في كذبة ما؛ في الأول من نيسان سنة 2013 وصل والدي إلى قلب العاصمة دمشق، إلى البرامكة، ثم إلى منطقة الحلبوني، فاختطفته كذبة ما، وسملت عينيه يدٌ ما، وربما أيادٍ كثيرة..

لم أعرف في حياتي كلها بلاداً قاسية مثل بلادنا.. بلاد مرّ بها العرب والعجم، مرّ بها الأصحاب والغرباء، ومرَّ بها الألم مزهواً.

لم أعرف في حياتي مدناً تسلب الأبناء آباءَهم مثلما فعلت تلك المدن.

لم تتآكل أسناني ولم يكن عليّ أن أغضب أكثر. كل ما في الأمر أنني شعرت بالتخشّب في حلقي، وعدد كبير من البالونات انفجر في صدري، حين التقيت صدفة جارة أهلي وسألتني: ألم تعرفوا شيئاً عنه؟

عنه؟!

من تقصد هذه المرأة!؟

كانت تقصدك أيها الرجل؛ وأنت تقف على أبواب عامك الستين، من دون شعرة بيضاء واحدة في رأسك. بقدك القليل، وأناقتك المفرطة، وعطرك الذي كان يدوّخ قلبي.

لقد غبت في الزحام كما تقول الأغنية..

غبت ولم تكن لديك نبوءة.. وكان يجب أن أبقى على الدوام أمّ أبيها!

تدري يا أبي؟..

ربما تعرضت أضلاعك -المشقوقة أصلاً- إلى السحق.

ربما فقدت بعد يومك الأول حزام ساعتك الجلدي الأسود. ربما لم تستطع أن تخبرهم أنك بحاجة إلى أدوية الضغط والكوليسترول.

لقد شقّ الأطباء صدرك قبل سنوات.. نشروا أضلاعك بعد أن ضاقت أوعيتك وكان لا بدّ من إجراء جراحة لتوسيعها.

لم يصدقوا جملك الكاملة المضبوطة الدقيقة المنتقاة التي تخرج منك بتداع وسلاسة وسلامة ووضوح. ولكن كيف لم يصدقوك؟

لطالما كنت رجلا مفوهًا يا أبي.

متأكدة أنهم شتموك، وأوسعوك ضرباً، وقالوا عن زوجتك وبناتك وشقيقاتك وجاراتك (.....)!

تعرف ماذا قالوا؟

أنا كذلك أعرف.

كل من عاش ويعيش وبقي وغادر ومات وفُقِد في دمشق يعرف.

ونعرف معنى أن يقتادك رجال الأمن، ومعنى عباراتهم المضحكة: "بدنا ياك خمس دقايق.. فنجان قهوة.. ما بتطول سؤال وجواب وبترجع".

البحر يضحك، وظلك يضحك، ورجال الأمن الذين اقتادوك في تلك الظهيرة يضحكون، ونحن أولادك نضحك، وجدتي التي ابيضت عيناها في انتظارك تضحك. كلنا نضحك يا رجل.. حتى أنت!

سيجارتك التي لم تدخنها يوماً، وأطنان الشتائم التي كالوها لك في قبو ما تحت أرض دمشق تضحك.

مرّت آلاف الأسئلة، ولم يعيدوك ولو في كفن!

كان يجب عليهم أن يفعلوا.

من أنا حتى أقول كان يجب أن يفعلوا؟

في بلادنا لا تقول، بل يُقال لك.

تكتب البنات عن الأب؛ القدوة، الحبيب الأول.

وأنا أكتب عن الندّ؛ عن الشبه المهول بيننا، الجينات، الملامح، الفقد، والانكسار ذاته.

في إحدى السنوات، في مكان ما من دمشق، كانت مديرة مدرستنا تطالعنا كل صباح بدفترها الأزرق وقلمها الرصاص، وتمشي خلفنا بين الباحة والصفوف وتسجل كل شاردة وواردة، وتردد عبارة: "هناك ملائكة على أكتافنا تسجل أعمالنا ويجب أن نحسنها".

لم أدرِ حتى اللحظة إن كانت قد تركت مهمة مراقبتنا للملائكة! ماذا كانت تصنع بقلم الرصاص والدفتر الأزرق إذا؟

هنالك ملائكة حقاً على كتفيك يا أبي؛ ملائكة حقيقية، تسجل يومياتك، وتنقلها إليّ بين الفينة والأخرى.

أنا أراك كثيراً، أراك دائماً تبتسم ليّ!

حين يحاول الجلاد قتل الحلم

ياسمين نهار

إنّ العلاقة الضّديّة بين السّجين والسّجّان قديمة قدم أولى الصّرخات المكتومة، ممتدّة امتداد دم الأبرياء المسفوح على الأرض المقهورة.

وقد حضرت هذه العلاقة في معظم الأعمال الرّوائية عبر نسقها الواقعيّ؛ إذ افتقرت إلى حبكة روائيّة متينة، وشبكة جديدة من العلاقات.

ويبدو لي أنّ عدداً غير قليل من كاتبي أدب السّجون لم يستطيعوا التّخلّص من التّعامل السّائد مع فضاء السّجن، أو من هيمنة ثنائيّة: السّجين/ السّجّان على كتاباتهم، ورغم ما تحمله هذه الكتابات من بُعد توثيقيّ عكس جانباً أو عدّة جوانب من العلاقة بين السّجين والسّجّان؛ إلّا أنّها بقيت ضمن حدود هذا الإطار المرجعيّ ورمزيّته وعنفه. وفي الحقّ أنّ "وحيد الطويلة" في روايته "حذاء فيلليني" كان قريباً من ثنائيّة السّجين والسّجّان وهارباً منها في الآن ذاته؛ لأنّه طوّع لغته لتجاريَ امتداد الحياة، وتنوّع إمكاناتها بعد خروج بطل قصّته "مطاع" من السّجن.

ومطاع معالج نفسيّ زُجّ به في المعتقل بلا سبب، وبلا تهمة واضحة، بينما يزاول مهنته -بعد خروجه من المعتقل- دخل إلى عيادته مريض برفقة زوجته. هنا تبدأ الزّوجة بسرد حكاية زوجها الضّابط الذي التوت رقبته نحو اليسار وأصبح عنّيناً إثر عزله عن مهامه. تتطرّق الزّوجة في حديثها إلى أسرار علاقتها مع هذا الزّوج السّاديّ وكيف كان يخونها، ويتفنّن في امتهان كرامتها وإنسانيّتها.

حين يسمع مطاع صوت المريض يكتشف أنّه الضابط الذي عذّبه في السّجن؛ حينها يبدأ باسترجاع ماضي الاعتقال المرير، ولحظات التّعذيب القاسية.

هكذا تشاء الأقدار أن تمنح مطاعاً فرصة الانتقام.

والسّؤال: هل سيستغلّ هذه الفرصة المواتية ويردّ الاعتبار لذاته الجريحة، أم سيتصرّف وفق ما تمليه عليه أخلاقيات المهنة ويسامح جلّاده؟

والحقيقة أنّ مطاعاً خرج من المعتقل بأنف مكسور وحواجب منتوفة وتهتهة خفيفة في اللّسان وسمّي باسم يناسب هيئته الجديدة وهو "مطيع"، "التّعذيب ليس كسر الأنف ونتف الحواجب بالكماشة، هو أن تكره نفسك وتسلّمها له وسخة جاهزة قذرة طيّعة يا مطيع" ص 58.

وتجدر الإشارة إلى أنّ وحيد الطويلة لم يكتشف شخصيّات متخيّله السّرديّ دفعة واحدة؛ بل كان يقوم بالكشف عنها بين موقع وآخر داخل الفضاء الذي تتحرّك فيه الشّخصيّات والأحداث. وتعدّ شخصيّة

مطاع/ مطيع من الشّخصيّات النّامية المركّبة عاشت التّحوّلات الدّراميّة داخل البنية الحكائيّة، وكان لتبدّل اسم هذه الشّخصيّة دور في إضاءة عوالمها الدّاخليّة، وكشف الكثير من الجوانب النّفسيّة والسّلوكيّة لصاحبها.

وشخصيّة الضّابط تمثّل لحظة من لحظات انكشاف البؤرة النّصيّة في الرّواية؛ فقد عرّى الكاتب من خلالها نظاماً شموليّاً يُدخل النّاس في دوّامته ويشوّههم ويدخلهم في منظومة الاستبداد.

ذلك أنّ المستبدّ في النّظام الشمولي هو صاحب السّلطة المُطلقة، وهو من يبدّل عقول الجلّادين ليصيروا على "مقاس مقام جلالته". والجلّادون بدورهم ينصّبون أنفسهم أوصياء على الشّعب؛ يقمعون ويعذّبون كلّ متمرّد على النّظام الشّمولي الاستبدادي، يساعدهم جهاز استخباراتي مهمّته التّجسس على أفراد الشّعب، وملاحقة كلّ فرد يعارض السّلطة واعتقاله، وما حضور شخصيّة "مأمون" في الرّواية إلّا دليل على حرص المستبدّين على تجنيد عدد كبير من "المآمين" كما سمّاهم الكاتب.

وقد يكون من الدّال بحقّ على تماهي الجلّادين بمستبدّ روّض أفراد شعبه لأنّه يخشاهم قول الضّابط: "مهمّتنا الأساسيّة أن نروّض الشّخص لا أن نقنعه، وعليه لا يمكننا أن نترك الأمور لتصاريف القدر، لا ينبغي أن تنتج الأمّة بشراً على غير هوانا" ص 126.

ثمّة شخصيّة فانتازيّة عجائبيّة في الرّواية خرجت عن قوانين الواقع المألوف هي شخصيّة الشّيطان، الذي دار حوار بينه وبين مطاع بينما كان الأخير في حالة هذيان واختلاط بسبب الشّراب المُسكِر. إذ نتأمّل الحوار نجد أنّ الشّيطان كان قناعاً رمزيّاً للذات الرّاغبة بالانتقام من الجلّاد. وحضور الشّيطان الشبحيّ كسر رتابة السّرد، وأثار الحيرة لدى البطل والقارئ معاً، والشّكّ فيما يحدث هل هو حقيقة أم خيال؟

ومقابل شخصيّة الشّيطان برزت شخصيّة المخرج وكاتب السّيناريو الإيطالي فيديريكو فيلليني الذي توفي عام 1993.

فيلليني هو قناع لـ مطاع/ مطيع حضر حضوراً رمزيّاً في الرّواية، كان يدفع صاحبه بشكل دائم لتجاوز فكرة الانتقام من جلّاده، ويحرّضه على نسيان الماضي لأنّه يحجب عنه دروب الحياة الحقيقيّة.

وكما كان فيلليني يحلم بمشاهد أفلامه قبل أن يصنعها، كان يطلب من مطاع ألّا يكفّ عن الحلم بتغيير النّهاية التي أرادها جلّاده؛ ليتمكّن من صنع قصته الخاصّة.

هكذا تقدّم الرّواية وعياً جديداً؛ يخرج من حدود الوقوف عند نقطة مظلمة في الماضي وما تحمله

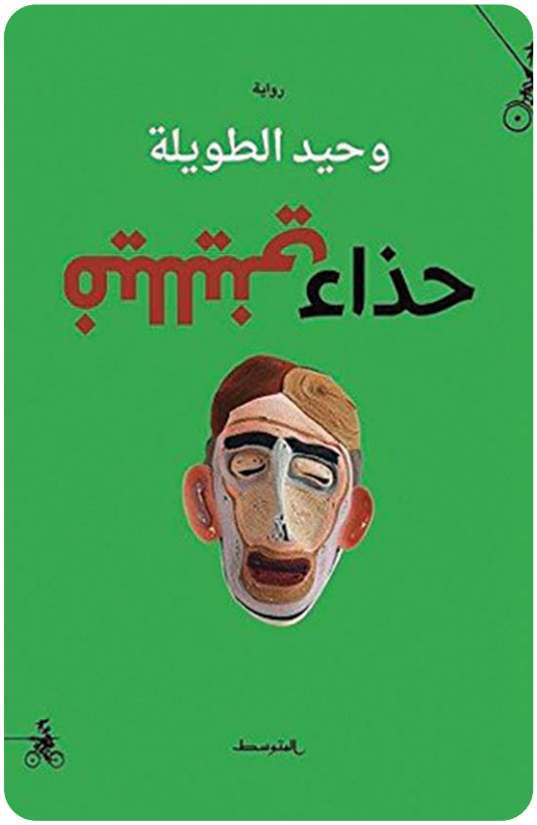

من مشاعر الضّغينة والرّغبة في الانتقام، وتطرح الحبّ كعالم بديل يرمّم جروح الماضي.

ذلك أنّ الطويلة لم يكتفِ بتصوير ما يلاقيه السّجين من اضطهاد وتعذيب، بل أظهر تصميمه على التّغيير ومتابعة الحياة، وهذا ما لمسناه في المونولوجات الدّاخليّة لمطاع التي تكرّرت في الرّواية وكشفت نوايا الشّخصيّة وحدّدت هويّتها: "هل أصدّق فيلليني؟ هل أمشي وراءه وأنا الذي طاردته طيلة حياتي كلّها حتى صار كلّ من يعرفني ولا يعرفني يسميني: فيلليني الشام أو مجنون فيلليني، أمسح الماضي بمحاة مرّة واحدة أو على الأقل أضعه حيث يجب أن يكون، أركله بقوّة بدل أن أسحبه من ذيله فأراه خلفي فيلاً يقفز مرّة واحدة للأمام فيحجب الضّوء والطّريق" ص 133.

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أنّ الكاتب لم يصرّح بزمن متن الرّواية؛ بل لمّح إليه في مواضع مختلفة؛ وهو زمن الرّبيع العربيّ وما واكبه من ثورات والمرحلة السّابقة له. وهو بذلك يكون قد سلّط الضّوء على هذه الفترة الزّمنيّة وإحالاتها السّياسيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة، وأعطى الرّواية بُعداً واقعيّاً.

ولاشكّ أنّ النّسق الزّمنيّ المتقطّع في الرّواية كسر رتابة السّرد، وحثّ القارئ على البحث عن الخيط الرّفيع الذي يربط ما بين الأحداث، وإعادة ترتيب الزّمن.

ويمكنني أن أتوقف عند أسماء أماكن ذكرها الكاتب دلّت على أنّ أرض الأحداث هي سوريا مثل: (نهر بردى، منطقة المزة، مجزرة حماة، حمص، دمشق..).

ومن اللّافت للنظر أنّ تأثّر الكاتب بـ"فيللني" جعله يفكّر سينمائيّاً أثناء كتابة الرّواية، ويوظّف هذا التّفكير الدّرامي في الرّواية، بالإضافة إلى اعتماده على بعض النواظم السّينمائيّة؛ ولاسيّما في تقنية المشاهد المتتالية التي أوهمت بواقعيّة الأحداث في روايته.

يمكننا إذاً القول: إنّ كاتبنا لم يهتمّ بالحكاية فقط، بل انصبّ اشتغاله على أدواته وما استقاه من تقنيّات الفنّ السّينمائيّ. ذلك أنّ الطويلة كان يرسم المشهد أكثر ممّا يقوله وهذا خلق حالة من التّرقّب وأعطى فرصة للمتلقي ليركّب المشاهد بعيداً عن المعطيات الجاهزة.

فضلاً عن أنّ الكاتب أدرك ما يجب على الشّخصيّات أن تقوله أمام كلّ موقف، وبرع في استنطاق عوالمها الدّاخليّة، ولاسيّما حين استخدم تقنية الاسترجاع التي ساعدت بدورها على إضاءة الشّخصيّة من الدّاخل وكشف أعماقها.

وإذا توقفنا عند عبارة فيلليني التي آمن بها مطاع وعلّقها على جدار عيادته: "لا شيء أصدق من حلم، الأحلام آخر ما يموت" كانت العبارة تعني في بداية الرّواية الحلم بالاقتصاص من جلّاده؛ لكنّها أصبحت تعني الحلم باستمرار الحياة، الحلم بحبّ يرفو ثغرات الرّوح.

وكاتبنا لم يكتف بإبراز المتناقضات الحياتيّة لدى بطل قصّته، بل جعله ينتصر عليها، وينتصر على الجلّاد حين قتل "مطيعاً" ليحيا "مطاع". بهذه الرّؤية استطاع وحيد أن يتجاوز مخزون الذّاكرة الجماعيّة للمعتقلين، وأن يمنح الرّواية بُعداً جديداً.

ومن الملاحظ أنّ الكاتب بدأ روايته بعبارة: "هذا ما حدث بالضبط" وكرّرها أكثر من مرّة، وختمها بعبارة: "على الأرجح هذا ما حدث" وكأنّه أراد أن يقول لنا في المشهد الأخير من روايته: كلّ شيء في الحياة في صيرورة؛ لأنّ الموقف من الحياة ليس ثابتاً، لأنّ الوعي ليس ثابتاً.

بالمعنى الذي سبق تكون نهاية الرّواية بداية رواية جديدة، دون أن يتحدّث الكاتب مباشرة عن هذه الدراما الجديدة.